معارف العرب فى الجاهلية ومعتقداتهم

ينبغى لمن يتعرض لهذا الموضوع بالكلام أن يصدره بأمرين جديرين بالعناية هما:—

أولا أن المقصود من كلمتى معارف ومعتقدات ليس ما يفهم من كلمتى علوم وأديان بالمعنى الذى يعرفه الناس لان الحياة البدوية الجاهلية تأبى هذا الاطلاق فما كان علم من غير حضارة ولا كان دين بغير دعوة وكلا الامرين لم يك موجودا فى الجزيرة العربية قبل الاسلام الا فى أجزاء قليلة من أطرافها لا يصح تغليبها على المجموع الكثير ولهذا اختيرت الكلمتان السابقتان فى العنونة له دون أختيهما اللاحقتين

وثانيا أن ما عرف عنه لم يك مرجعه الاثر والحفر أو التدوين القديم كما هى الحال فى بعض التواريخ فان العرب كانت بعيدة اذ ذاك عما تستلزمه هذه الاشياء من تقدم فى الصناعة ومعرفة بالكتابة انما كان مأخوذا مما نطقوا به فى أشعارهم وما قصه القرآن من أحوالهم وهو لا يعدو فى المعارف نتيجة التجربة وفى المعتقدات أثر العادات الا ما أخذوه فى النوعين عن غيرهم من الامم ذات الحضارة أو الدين أو الاثنين معا كالروم والفرس واليهود بحكم المخالطة والجوار كما سنقصه بعد بالاجمال .

اولا — المعارف

١ — السماء وكائنات الجو

لعل خير معارفهم فى الجاهلية علمهم بالسماء وكائنات الجو لارتباط ذلك بمعاشهم من حيث توقف حياتهم على المطر وهدايتهم على النجوم وقد استعانوا على كثير من

هذا العلم بالكلدانيين وهم بقايا كهنة بابل عباد الكواكب ذوى المهارة فيه ويعرفون عند العرب بالصابئة والى هذا يرجع السبب فى اشتراك كثير من الفاظه ومصطلحاته بين العربية والكلدانية

وقد عرف العرب الافلاك وهى مدارات السيارات وكثيرا من الكواكب والنجوم وعرفوا السيارات السبعة وهى الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل وكذا البروج الاثنى عشر وهى ما يقع من الكواكب والنجوم فى سمت مدار الشمس وسموها بأسماء الصور التى تشابهها من بعض الحيوان أو النبات أو الادوات وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت كما عرفوا منازل القمر الثمانية والعشرين وهى الكواكب والنجوم التى تقع فى سمت مداره ويقطع كل منزلة منها فى ثلاث عشرة ليلة وقسموها على الفصول الاربعة الشمسية فجعلوا لكل فصل سبع منازل وهى بالترتيب الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع للربيع ، النثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك الاعزل للصيف ، الغفر والزبانى والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة للخريف ، سعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية والفرغ الاول والفرغ الثانى والرشاء للشتاء .

وهم يسمون هذه المنازل بالانواء والنوء عندهم النجم يسقط تحت الافق الغربي مع الفجر ويطلع رقيبه فوق الافق الشرقى من ذلك الوقت

ولما كان الذى يهمهم هو المطر وما يتبعه من رياح وحر أو برد قسموا السنة من حيث المطر سبعة فصول سموها بأسمائه وهى بالترتيب البدرى وأنواؤه ثلاثة تبدأ بالفرغ الاول ويليه الوسمى أربعة أنواء والولى عشرة والغمير

أو المد أربعة والبسرى اثنان وبارح القيظ ثلاثة ثم احراق الهوى وهو اثنان وعلى ترتيبها هذا يبدأ المطر ضعيفا ثم يأخذ فى التزايد حتى يبلغ أشده فى الولى ثم يعود الى التناقص حتى يكون الجفاف .

٢ — البيطرة والطب

ومن خير معارفهم بعد النجوم البيطرة وهى تطبيب الدواب من ابل وخيل لشدة حاجتهم اليهما وبخاصة الخيل فقد بلغوا درجة كبيرة فى تعرف أمراضها وعوارض هذه الامراض وكيفية معالجتها وساعدهم على ذلك واسع علمهم بصفاتها وطباعها وعيوبها مما استفاضت بحوثه وأمد الرواة بالتأليف فيه ويغلب أن يكون علم البدو بكثير من ذلك الى الآن موروثا عنهم .

أما طب الانسان فلم يك عندهم فيه شىء ذو بال الا ما كان من الكى والبتر ولكن فى أواخر الجاهلية ظهر فيهم بعض الاطباء كالحارث بن كلدة الذى تعلم الطب فى فارس وزاوله ببلاد العرب وهو صاحب المحاورة الطبية المشهورة مع كسرى وقد سأله فيها عن كثير من قضايا الطب فجاءت إجابته عنها أشبه برساله طبية ذات قيمة. هذا على أن جهل العرب بالطب لم يمنعهم أن يعرفوا كثيرا من أسماء العلل وسماتها والامراض وعوارضها كما تدل على ذلك ألفاظهم الموضوعة فى هذا الباب

٣ — التاريخ والانساب

لم يك عندهم شىء ذو نظام من علم التاريخ انما كانت لديهم أخبار مقتضبة متوارثة وقفوا عليها بمجاورتهم للفرس والروم ومخالطتهم لليهود وبما أسس فى أطراف جزيرتهم من ملك وبعث هنا لك من أنبياء وبالرغم من أنهم بكروا فى وضع شهورهم القمرية وفى علمهم بالسنة الشمسية لم يستخدموا التأريخ بالسنين كما فعلت الامم حولهم مكتفين بقوالهم للزمن القديم عادى وللاقدم

منه زمن القحطل ومستغلين عظام الحوادث للتأريخ وكلما جدت حادثة عفت على سابقتها وهكذا بقوا حتى جاء الاسلام.

وبمقدار اضطرابهم فى التاريخ كانت دقتهم فى الانساب فقد كانوا يلمون بها الماما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وكان أعلى النسب عندهم الشعب ومنه تشعب القبائل ومن القبيلة تكون العمائر فالبطون فالافخاذ وليس بعد الفخذ إلا الفصيلة. ولقد كان فيهم نسابون تعيا الدفاتر ولا يعيون وتضل الكتب ولا يضلون ساقهم الى ذلك حرصهم على سلامة أنسابهم ونقاء أحسابهم لحاجتهم الى النسب فى المقاتلة والمناصرة والى الحسب فى المفاخرة والمنافرة مع شدة طلبهم للثأر وعدم التوانى فى أخذه ممن هو محله أو هو منه قريب

٤ — القيافة والعيافة

القيافة أصلا الاهتداء بآثار الاقدام على أربابها غير أنهم توسعوا فيها فجعلوا منها الاستدلال بهيئة الانسان وأعضائه على نسبه وتسمى الاولى قيافة الاثر والثانية قيافة البشر وقد كانوا فى الاولى يميزون بين أثر الرجل والمرأة والشيخ والشاب والبصير والاعمى والاحمق والكيس وكذلك كانوا يفعلون فى الحيوان. وكانوا فى الثانية ينظرون عدة أشخاص مجهولى النسب لهم فيلحقون كلا برهطه وعشيرته فاذا كانوا من رهط واحد ألحقوا الابن بأبيه والأخ بأخيه والقريب بقريبه وقد اشتهرت بهذا النوع قريش وبالنوع الاول بنو مدلج وهم بطن من كنانة كما اشتهر من غيرها فى النوعين أفراد كثيرون. وكلاهما ضرب من الفراسة بقوة الحدس وصدق الخيال أوجدته فى المستعدين منهم حاجتهم الى تعرف الآثار وحقيقة الانساب والحاجة كما يقولون تفتق الحيلة بل هى أم الاختراع وان المطلع على ماروى من هذا عنهم لَيناله الدهش الكبير.

أما العيافة فأصلها الاستدلال باسماء الطيور وسقوطها وارتفاعها على ما يتفاءل

به أو يتشاءم منه ولكنهم توسعوا فيها أيضا حتى تعدت الطير إلى غيره من حيوان ونبات وجماد وتعدت ماتقدم من الاسماء والسقوط والارتفاع إلى لاصوات والحركات وسائر الاحوال والصفات .وهى كالقيافة ضرب من الفراسة بقوة الحدس وصدق الخيال وقد اشتهرت بها قبائل أخصهم بنو لهب وهم بطن من الازد وأفراد آخرون.وكان من عادتهم فى عيافة الطير أن ايزجروا على السانح ويتبركوا به وهوما أراك ميامنه فأمكن الصائد منه ويكرهوا البارح ويتشاءموا منه وهو ما أراك مياسره فأمكن الصائد منه وهذا من زجر الطير سقوطا وارتفاعا. وكثيرا ما كانوا يزجرون بالاسماء فيجعلون الهدهد هدى وهداية أو يأخذونه من الهد والاتلاف كما يأخذون الحمام من حم اللقاء أى قرب أو من الحمام وهو الموت ويجعلون العقاب عقبى خير أو عقبى شر وكذلك فى سائر الطير إلا الغراب فانهم لايخرجون فيه عن التطير والتشاؤم فيجعلونه من الاغتراب ويسمونه غراب البين كما يسمونه حاتما لانه يحتم عليهم بالفراق والاعور تطيرا عليه إذ كان أصح الطير بصرا ولعل ذلك أتاه من تعوده الوقوع فى مواضع الدور يتلمس إذا بان أهلها للنجعة وبعضهم كان يضم اليه فى الرحلة والنوى التطير بالابل لانها المفرقة للالاف ولكن ذلك لم يك بالكثير المقبول إذ أنها من جانب آخر آلة الوصلة واللقاء

٥ — العرافة والكهانة

العرافة هى القضاء بالغيب وكذلك الكهانة لافارق بينهما غير أن من الناس من قصر العرافة على تعرف ماخفى من حوادث الماضى وجعل الكهانة للتكهن بما عسى أن يكون فى المستقبل ولكن لم نجد أثرا بينا يسمح بهذا التخصيص وكل ما يمكن أن يعد فاصلا بين النوعين هو أن العراف كان دائما أقل من الكاهن وكان يستخدم خبرته غالبا فى معالجة بعض الامراض ولهذا كان

مقصد المرضى وذوي الاسقام يؤيد ذلك ماورد من أشعار ومن أشهر العرافين بالتطبيب والغالب عليه التطبيب الروحانى رباح بن عجلة باليمامة والابرق السعدى بنجد . أما الكاهن فكان يفزع اليه فى تعرف الحوادث ويقصد فى ناحية والخصومة للقضاء فيها بالحق من إدراك غيبه وكان من أشهر الكهنة فى العهد الجاهلى سطيح بن مازن الغساني وشق بن أنمار الانزرى وسواد بن قارب الدوسى والكتب الادبية والتاريخية ملأى بحوادثهم وحكاياتهم. هذا .

ويعلل العلماء الآن لحوادث الكهانة التى لاشك فى صدق بعضها لدى العرب وغيرهم من الامم القديمة فى مصر واليونان والرومان والهند والصين بارجاعها إلى ما أثبته العلم الحديث من السبات المغناطيسى وهو عبارة عن تخدير يحدث فى الجهاز العصبي الحسى تنفصل على أثره النفس من الجسم فلا تبقى مرتبطة به إلا ارتباطا خفيفا لانها بهذا الانفصال تعود إلى جانب من حريتها الاصلية فتبدو منها تلك الادراكات الغريبة التى عجز الماديون عن شرح عللها والتى نسبتها الاديان فى رأيهم لتقريبها لاذهان الناس إلى الملائكة أو الشياطين ويقولون لما كان انفصال الروح عن الجسم لايبلغ منتهاه مهما كانت درجة السبات إذ نهايته الحقة لاتكون إلا بالموت كان من الحتم أن يبقى شىء من الرابطة يعكر صفو هذا الانفصال فيتسرب الكذب إلى كثير من مدركات النائمين ومنهم الكهنة والعرافون الذين كانوا يلقون أنفسهم فى السبات لما ثبت من أن الاستعداد الشخصى فى النائم والمنوم قد يجتمع فى بعض الناس ومن ثم نهت الشرائع عن الركون إلى الكهنة وكانت العقيدة الحقة أن الله سبحانه هو وحده المستأثر بعلم الغيوب

٦ — الخط العربي

قد كان يجمل بنا ألا نعد الخط العربي من معارف العرب الجاهليين فى شىء لانهم

كانوا أميين فى عموم البدو ومن قرأ أو كتب فى حصرهم كان خطه قاصرا وقراءته غير نافذة ولكن وجوده فيما تحضر من دولهم قديما باليمن والحيرة ولمجيهم فى لغتهم بكثير من الالفاظ الموضوعة له ولادوات الكتابة ولو لم يعرفوها الى ما كان لهم فيه من شأن بعد الاسلام ارتكز على الخط الحيرى القديم كل هذا جعلنا لا ندعه دون كلمة عنه تعتبر تاريخية فى هذا الموضوع فنقول:

لا خلاف فى أن منشأ الخط العربى القديم كان ببلاد اليمن فى الخط المعروف بالمسند الذى ساد بها على عهد السبئيين والحميريين وهذا المسند يرجع الى الارامى وهو خط المعينين أقدم الامم الآرامية نزوحا الى هذه البلاد. والارامى مقتبس من الفينيقى المأخوذ من الخط المصرى القديم ولما انتقلت كندة وهى من كهلان الى شمال الجزيرة العربية انتقل معها المسند فعرف بالكندى ثم بالنبطى نسبة الى جيل عربى عرفه منها هناك ومن كندة والنبط أخذه أهل الحيرة والانبار فنسب اليهما وعنهما نقله الى مكة بالحجاز حرب بن أمية قبيل الاسلام فتعلمه عدد من أهلها كان منهم كتاب الوحى بعد على عهد رسول الله وبعد تأسيس الكوفة على مقربة من الحيرة عرف الخط الحيرى باسم الكوفى ثم أخذ يزداد زخارف وأنواعا على توالى الحضارات الاسلامية حتى وصل الى ما نراه الآن

ثانيا — المعتقدات

كان للعرب فى جاهليتها معتقدات شتى بعضها يجرى مجرى الشريعة والمذهب هى الاديان وبعضها يجرى مجرى العرف والعادة هى الاوابد.

١ — الاديان

فى الاديان كانوا كثيرى المذاهب الى الحد الآتى

١ ـ عبدة الاصنام وهم الغالبية العظمى وعقيدتهم الاقرار للخالق بكل شيء ولكنهم ينكرون البعث وارسال الرسل ويعبدون الاصنام لتقربهم الى الله زلفى

٢ ـ عبدة الشمس أو القمر أو النجوم وعقيدتهم كعقيدة عباد الاصنام وكذلك موقفهم فى عبادتها فهم يتخذونها قربى الى الله لانها من دلائل عظمته وباهر آياته .

٣ ـ عبدة الملائكة طمعا فى خيرها والشياطين خوفا من شرها على أنها جند الله وهم فى العقيدة كالسابقين . ومثلهم عبدة الجن على أن فيها الخير والشرير

٤ ـ عباد النار كالمجوس وقد سرى اليهم ذلك من الفرس وبيوت النار عندهم كبيوت الله عند ذوى الكتاب

٥ ـ الصابئة وهم عباد الفلك الذين يعظمون بروج الشمس الاثنى عشر والكواكب السبعة السيارة ويثبتون لها ما يثبته الموحدون لله وقد سرى هذا المذهب اليهم من سكان بابل القدماء هذا على أنه قد كان فى الصابئة قبل الاسلام من عدل عن هذا الى دين ابراهيم كما كان فيهم بعده من هو شديد الميل الى دين المسلمين ولذلك ذكروا فى بعض الآيات على أن منهم المؤمنين

٦ ـ الثنيون وهم القائلون بان الاله اثنان اله خير هو النور واله شر هو الظلمة وأنهما قديمان ثم يثبتون لهما من الصفات ما يثبته المؤمنون لله وهؤلاء هم الزنادقة

٧ ـ الدهريون ومذهبهم إنكار الخالق والبعث على أن الطبع يحيي والدهر يفنى

٨ ـ اليهود وكانوا فى يثرب واليمن

٩ ـ النصارى فى الشمال من ربيعة وغسان وفى الجنوب فى نجران

١٠ ـ الموحدون وكانوا آحادا يدينون بما تسرب الى العرب من ملة أبيهم ابراهيم والمعروف منهم قليل .

ب — الاوابد

وكذلك كانت لهم أوابد كثيرة ينزلون على حكمها ويعملون بها وأهمها .

١ — استقسامهم بالازلام وهى قداح مكتوب على كل اثنين منها الامر وضده كسافر أولا تسافر مثلا فاذا أراد أحدهم شيئا ذهب الى سادن الوثن فأخرج له أحدها فعمل بما فيه

٢ — تفاخرهم بلعب الميسر وهو المقامرة بالقداح وعددها عشرة الفذ بنصيب والتوأم باثنين والضريب أوالرقيب بثلاثة والحلس باربعة والنافس بخمسة والمسبل أوالمصلح بستة والمعلى بسبعة ثم السفيح والمنيح والوغد ولا أنصبة لها انما كانت تخرج فترد تضليلا لذوات النصيب. فكان من عادتهم اذ أرادوا اللعب أن ينحروا جزورا يقسمونها عشرة أقسام ثم يأخذوا فى استخراج القداح بعد تقسيمها عليهم وكلما خرج قدح أخذ صاحبه نصيبه وعمدوا إلى النحر اذا قلت الانصبة الباقيه عن إيفاء اكبر قدح لم يخرج وفى هذه الحالة يكون الغرم فى ثمن ما نحر على ذوى السهام الباقية وهكذا حتى تنتهى جميع القداح فتنتهى النوبة

٣ — حمايتهم البحيرة ببحر أذنها أى شقها وهى الناقة تنتج البطن الخامس وكذلك كانوا يحمون السائبة وهى التى يسيبونها لنذر أو شبهه والوصيلة وهى أنثى البطن السابع للشاة واذا كان معها ذكر وصلته بالحماية وكذلك الحام وهو الفحل يخرج عشرة أبطن

٤ — إغلاق الظهر وهو حبس سنام الفحل اذا بلغت الابل مائة ليمنع عنها العين ومثل ذلك التفقئة وهى فقء عينه اذا بلغت الفا فاذا زادت عنه كانت التعمية وهى الذهاب بعينيه جميعا .

٥ — ضربهم الثور لتشرب البقر على زعم أن الجن تركبه فتخيف البقر فاذا

ضرب ذهبت عنه ومثل ذلك كى السليم من الابل أمام الاجرب ليبرأ

٦ - ومن عقائدهم فى الميت أن يحتبسوا على قبره ناقة يربطون عنقها الى ذنبها مع تغطية رأسها فلا تزال كذلك حتى تهلك أو تنجو باعتدال عنقها أو افتكاك رباطها وكانوا يسمونها البلية ويسمون الغطاء الحشية ومن ذلك قولهم «رأس البلايا فى الحشايا». وكانوا يزعمون أن القتيل اذا قتل يخرج من رأسه طائر يدعى الهامة فلا تزال تقول «اسقوني اسقوني» طلبا لثأره حتى يدرك ومن عادتهم هنا عدم البكاء على القتيل ما لم يؤخذ بثأره

٧ - ومن عقائدهم فى المداواة تعليق الحلى على السليم وتسهيده سبع ليال ووضع منخل على رأس من تصاب شفته بالحلى مع المرور به فى الحى قائلين «الحلى الحلى» وكذا تعليقهم للصبى سن الثعلب والهرة وكعب الارنب دفعا للنظرة أو الخطف ورميهم سن الاثقار فى عين الشمس لتأتى بخير منها

٨ - ومن عاداتهم أيضا وأد البنات للعار والاولاد للفقر وقد شدد الاسلام النكير عليهما فى ذلك

٩ - ومنها ايقاد النيران وأشهرها نار القرى ونار الحلف ونار الهداية ونار الحرب ونار الفداء وهذه للنساء خاصه

ومنها غير ذلك كثير كوطء المقلاة دم الشريف ليعيش ولدها. وشق الرجل برقع محبوبته والمرأة رداء حبيبها الكيلا يفسد العشق وكى الاليتين ليذهب. وذكر الرجل أحب الناس اليه ليذهب خدر رجله. ومسح الطارف العين المطروفة سبع مرات لتسكن وهكذا مما يضيق المقام عن سرده فضلا عن شرحه فليرجع اليه فى مظانه على أنه سيأتي فى تدوين الشعر لاحوال العرب الاستشهاد على كثير من هذا بعد إن شاء الله

وبعـــد

فقد آن لنا أن نشرع فى الادب الجاهلى بعد الذى ذكرناه بمثابة المقدمات له . غير أن ما جرى عليه بعض الباحثين فى هذا العصر من التشكيك فى وصوله الينا تشكيكا جعله فى نظرهم بعيدا عن الثقة والاطمئنان حملنى أن أصدر القول فيه بكلمة ترد عليهم شكوكهم وتبرهن على أنه محل ثقة واعتقاد كما حملنى هذا الاغراب منهم فى التفكير طمعا فى الاتيان بجديد وان لم يك ذلك الجديد بالمقبول أن أتبعها للرد عليهم أيضا بكلمة أخرى عن بحث لهم ثان ارتكبوا فيه مثل هذا الشطط وأشد ذلك زعمهم أن الشعر أسبق الى الوجود من النثر . فهاتان كلمتان جعلتهما فى صدر الموضوع وان كانتا من أبحاثه فى الصميم .

الادب الجاهلى

ألنا أن نطمئن اليه ندرسه ونرويه

ان لنا أن نطمئن

كانت العرب فى جاهليتها أمة فصاحة وكلام ولسن وبيان لامطعن هنا لطاعن ولا جدال ساقهم الى ذلك فطرة فطروا عليها من صفاء خاطر وذرابة لسان وحفزهم اليه طبيعة عيش اقتضت منهم أن يتغنوا ويرجزوا ويتفاخروا ويتهاكظوا حتى كان الكلام بضاعتهم النافقة به تعمر أسواقهم ويتناقله عنها حداؤهم وركبانهم فيدوى فى أرجاء جزيرتهم دويا تهتز به رمالها ويطرب له كل ذى حياة يعيش فيها ثم لايلبث أن تضيق به جوانبها فاذا هو قد جاوزها الى الامم الاخرى وقديما كان لكل أمة سمة تعرف بها فى غيرها وسمة العرب الكلام .

كان طبيعيا اذن أن تقول العرب وأن تكثر من القول وأن يتناول ذلك عضوى الادب اللتين عليهما نهض من نثر وشعر كل فى الغرض الذى من أجله كان وله درج ولكل مقام مقال . وكان طبيعيا مع هذا أن يتناقل السامعون كلام القائلين خلفا عن سلف ابقاء للاغراض التى قيل فيها ومحافظة على المآثر التى سجلها فاذا ماضممنا الى هاتين الطبيعتين ميزتين أخريين هما القدرة الفائقة

التى كانت معروفة للعرب على الحفظ واعتزاز كل قبيلة بمواد حسبها ومفاخرها ضمنا بها أن تدول مضافا اليها ما كانوا عليه جميعا من أمية جعلت دفاترهم رءوسهم ودواوينهم حفظ أقوالهم كان لنا أن نطمئن الى أن هذه المناقلة الكلامية تبقى ما بقيت هذه العوامل ذات كون وثقة وتأييد حتى يطرأ على العرب ما يغير هذه النواميس ويطبعها على غيرها وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ولكن شيئا من ذلك لم يكن حتى جاء الاسلام

جاء الاسلام والجزيرة العربية تدوي دوى النحل قد ضل غيرانه بكل مأثور من القول اعتز به حافظه وحرص عليه سامعه الى درجة لم يلههم عنها الاسلام بحدثه الاجل ودعشته العظمى فاستمروا من بعده طويلا يعقدون عكاظهم ويسترسلون فى مفاخرتهم ومنافرتهم وهل كان الاسلام الا متحديا لهم فى بأيهم ومنازلا اياهم من واديهم وقد جعل آيته الكبرى القرآن الكريم يساجلهم فى الفصاحة ويحاجهم بالبلاغة ثلاثا وعشرين سنة حتى امتلك عليهم ناصيتها واستل من ايديهم زمامها فألقوا اليه بقياد النثر وعكفوا هم على الشعر وهذه احدى الدواعى التى جعلت مأثور الشعر أكثر من مأثور النثر كما سنذكر فى محاكمتهما قلة وكثرة الى الطبيعة بعد

قد يقال كان للاسلام أن يغطى على القديم ويخذل الناس عن روايته ولكن كيف وقد أودع تعاليمه وأحكامه كتاب الله وهو الذروة فى البلاغة وحديث رسوله وهو المقفى له من بعده وليس من سبيل الى استمرار فهمهما والحرص على عدم استغلاق معناها الا برواية لغة العرب والمحافظة على تفهم مأثورها وهذا لعمرى داع دينى دعا الى الرواية والمدارسة منذ فجر الاسلام وناهيك بالوازع الدينى وبخاصة فى ذلك العهد من حداث للهمم الى العمل وناثل من النفوس مكانة التقديس والاجلال

حرص المسلمون اذن منذ مجاء الاسلام على أدبهم حرصهم على دينهم وهاهو ذا عبد الله بن عباس رضى الله عنه فى تفسيره القرآن الكريم كان يجلس له ولدراسة الادب فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تضرب اليه أكباد الابل من أقصى الجزيرة وأبعد منه لسؤاله عن معانى كثير من مفردات القرآن ومحاكمته فى معناها الى المأثور من كلام العرب فيروى فى ذلك الكثير من الاشعار وما يغائب عنا ما كان لنافع بن الازرق أحد رؤساء الخوارج إذ ذاك فى هذا الباب . ومن ثم كانت هذه اكرة للادب القديم على عهد الخلفاء الراشدين بل وبالسنة بعضهم ثم هذا حفوظهم فى نفسه وبشكل أوسع دائرة وأبعد مدى ملوك بنى أمية فكانت مجالسهم مثاراً للادب يسوق اليها الاستمتاع واللهو والتسلى والقصص أو المفاخرة والمنافرة والمنافسة والاستناد الى ما كان قائما بجوار هذا فى البادية مما استمر تأثيره صوره بكاظمة طويلا وبمربد البصرة الذى خلقها إذ ركدت ريحها بل بسائر المجالس والمنتديات ومن هنا نشأت الرواية بالمعنى الاصطلاحى وكثر الرواة ولم يكد كامل هؤلاء يعتنى بالحفظ والتعليق حتى انتشرت الكتابة وكان التدوين فرفع عنهم ما أثقلهم وجعلهم يوجهون جهودهم الى ما لم يعدوا له بعد من البحث والتحقيق

هذه طريق لا عوج فيها ولا أمت ندرج فيها الادب الجاهلى حتى وعته بطون الكتب فاذا بالكم الذى وصل الينا منه شاهق فى مقاديره لما يقتضيه العقل وتطلبه سنة البقاء . فالشعر وحده صار هم العرب وحده لما تقدم من عزوف القرآن النثر عزوفة قللت من شأنه وصرفت الاذهان عنه قد حفظ منه أكثر مما حفظ من النثر الذى درس معظمه قبل أن يتصل بطبقات الرواة والا وصلنا منه ما تنفد دونه الصحف وتقف الحبار لانه للجماعة والشعر لافراد على أن

من الاسباب الداعية الى قلة مأثورة أيضا ماهو سابق للاسلام اذ لاشك أنه أصعب من الشعر حفظا وأبعد استذكارا وهذه نظرية خضع لها النثر فى أقسامه كما خضع لها أمام الشعر فى جملته فكان أكثره رواية أيسره حفظا إما لقلة ألفاظه وصغر صوره كما فى الحكم والامثال التى سهل على الالسنة ترديدها وكانت الحوادث تدعو الى استعمالها فوصل منها أكثر مما وصل من غيرها بينا يجزم العقل أنها لابد كانت قلة فى كثرة ونقطة فى لجة لصعوبة معالجتها وندرة الاشخاص القديرين عليها واما لانه مع طوله تقرب الى الشعر قليلا بالازدواج أو كثيرا بالسجع فكان فى ذلك الاتزان فى التقسيم والتوافق فى التقفى ماجعله سهل الحفظ على الذهن شديد الاعتلاق بالنفس ومن ثم نجد المروى من المسجوع أكثر من المزدوج وهذا أكثر من المرسل مع أن الطبيعة التى يخضع لها صدور الكلام تأبى الا العكس ولكن ماقيل شىء والذى روى شىء آخر ومن ثم أيضا لم يصلنا عن الجاهلية من الكلام المرسل الا القليل مع أنه كان الغالب الكثير ولولا أسباب خارجة عن كنه الواصل قد حملت على روايته لباد كما باد سائره فتعزية أكثم بن صيفى حكيم العرب لاحد ملوكها فى أخيه وهى مرسلة وكلمة قبيصة بن نعيم رئيس وفد بني أسد الى امرئ القيس عقب مقتل أبيه وهى مرسلة أيضا وفيها بعض ازدواج لولا مكانة الحادثتين ومن قال ومن قيل له لعفتا فيما عفا وزالتا فيما زال ولمثل هذه الاسباب الخارجة كان المأثور فى السجع عن الكهان أكثر من غيره لغرابة موضوعه واتصال بعضه بالعقيدة مع مافيه من اطالة التقفية وهذا حكم فيه ان لم يصدق كما صدق نسبة .

أفبعد هذه الطريق التى تكنفها الطبيعة ويسايرها العقل يطعن فى الادب

الجاهلي ويرمي كله بالوضع والاختلاق لتوافه زادها فيه بعض الدساسين وأساطير وضعها عليه بعض القصاصين ومطاعن وجهت الى آحاد فى جمهرة الرواة ثم يدعى بجرأة الى دراسته فى صدر الاسلام وعصر بنى أمية كأن الزمان قد وقف وكأن شيئا من احداث الاسلام المزلزلة لم يلك كان . ان هذا لاجحاف بالتفكير وظلم للعقول فالادب الجاهلى كثرة تتضاءل أمامها تلك الزعانف الموضوعة وصخرة تتكسر عليها هذه النفاخات الطائرة على انها اذ ألصقت به وهو منها براء لم يتلبس الامر فيها على رواته بل مازوها ميز الخبيث من الطيب ووسموها بميسم الزيف أمام الجيد الصحيح عرفوا ذلك شفاها حيث كان مرجع الادب الحفظ ثم دونوه واضعين أمامه أدلة التزييف حين التدوين فما بال المدعين هذه الدعوى ينسبونها اليهم تجديدا ويدعونها ابتكارا وآثار أقلام الاقدمين من أكثر من عشرة قرون تكاد تخرج اليهم من بطون الكتب فتسود عليهم صفحات وجوههم من هول مايقولون

أكان مايقولون حقا ولم تفطن اليه الشعوبية فى القديم وقد مكثت قرونا تعير العرب ماشاء لها التعيير فتتلمس فى كلامها نقصا وتجعل ماتظفر به من الحقير عظيما ثم لاتهتدى الى أن خير ماتفخر به العرب وهو قديم أدبها ليس لها وانما هو شىء انتحلته زورا وادعته بهتانا فتقف أمام ذلك لاتقدم رجلا ولا تحير جوابا بينا يكفيها نقضه وحده مئونة الكد المتعب والكدح المضنى ألا انها وقفت لاعن خفاء وغيب ولكن أمام نور بهرها وسلطان قهرها لم يكد يلصق به كلف من ظلام أو ينسب اليه زيغ من ضلال حتى ميزه ذووه ورموا به بعيدا مزجر الكلب ومنبذ النواة ولقد كان من الرامين النابذين بعض الشعوبيين .

وأكان مايقولون حقا ويتركه فى الحديث جمهور المستشرقين دون أن يخوضوا فيه بالتجريح والتخديش فيسودوا ناصع بياضه ويصيبوه فى قدسه وجلاله بدل أن يرووه ويخدموه ويعترفوا به اعتراف من قهره الحق وأنطقه الواقع ثم يخرجوا من هذا بنتائج عن العرب قد يسوءهم تدوينها أولا يرتاحون الى اثباتها فعلوا ذلك ولم يشذ عنهم الا من أضله الله على علم فشايع التعصب الدينى وزحف الى الطعن فى دين العرب من طريق الطعن فى أدب العرب فأخذ ما ميزه الرواة لينبذ فأثبته وما فحصوا عنه ليستبعد فقربه ومع ذلك لم يشايعه بنوجنسه ومنهم بعض رجال الدين وإن للحق لأنصارا حيث تظن الظنون وتتوقع الخصوم

وإذا كان الأدب الجاهلى كله دسا وتدخيلا فما هو اذن الأدب الذى كان يروى فى صدر الاسلام والدولة الاموية قبل أن يخلق الدساسون أمثال حماد الراوية فى النصف الاول من القرن الثانى وخلف الاحمر من بعده فى نصفه الاخير. وهلا اذا كان الدس يقع جزافا وبغير حساب كان الاولى بالدساسين أن يستكملوا لنا مواضع نقص فى أدبنا كانت ولما تزل فاغرة فاها حتى يكون ذلك أسوغ لقولهم وأستر لدسهم كأن يدسوا بعضا من خطب على رجال جاهليين ضرب المثل بفصاحتهم فى الخطابة وكانوا فيها حكاما وعلى أهلها قواما وليس للواحد منهم فى المأثور شىء أوله مالا يتعدى الكلمة والكلمتين أليس لأن الامر لم يك كما يتخرصون فوضى سبهللا لاضابط له ولا رادع عنه. وهل يقبل منا أن نمرر المدسوس على رجال النقد وأرباب الكلام فى عصور التدوين والتأليف ثم نزعم لانفسنا الآن أنا به أعرف وأمين وهل ميزنا غير ميزوا الا ماسقناه قولا بلا حجة ونتيجة من غير مقدمة

ثم يقولون إن اختلاف الرواية دليل على الدس والله نشهد أن الروايات فى عهد يقع الاعتماد فيه على الحفظ وحده دون كتاب يسند أو نقش يؤيد لو اتحدت ولم نر فيها ما رأينا من خلاف هو الطبيعى المعقول لكان لنا أن نتخذ الاتفاق دليل الدس فكيف يتخذ الاختلاف دليلا علينا وهو لنا ويساق ضدنا وهو حجتنا

آن للمجددين بالمعنى الذى يقحمون فيه كلمة التجديد لا بالمعنى الذى نحترمه نحن أن يرعوا للقديم عهده ولحق البحث حرمته وألا يتجاوزوا فى الأدب الجاهلى ميز المدسوس عنه الى نقضه من أساسه فانهم اذا نقضوه وماهم ببالغيه ثم عادوا بعد ذلك يبنون وقع بناؤهم على غير أساس فاذا ما نفخوا فيه وصوروه وتساندوا اليه فأقاموه لا يلبث أن يخونهم وينهار « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الامثال »

المنثور والمنظوم

أيهما أسبق إلى الوجود

انا نقول بسبق النثر على الشعر

أظنه من الملائم فى هذا المبحث أن يعرض المتصدى له أولا وقبل كل شىء المعنى العام الذى يفهم من كلتا كلمتى نثر ونظم حتى إذا ماجلاه وأبان عنه وجعل الفارق بين المعنيين واضحا ملموسا عمد إلى هذا الفارق يحاكمه إلى الطبيعة ويستهديه القول فاذا هو الحكم الفصل والحق المبين . وأظنه من السهل محاولة ذلك مادامت كل كلمة فى ظاهر لفظها تمدنا بالمعنى الذي ينبغى أن يكون الوجه فى التفرقة والعامل على التميز وأن ماعداه من مدلولات ليس إلا ضمائم متممة مهما انحازت الى أحد الجانبين وظهرت فيه بمظهر المختص الملازم لاتعدو أن تكون شركة بينهما غير ناهضة وحدها أن تصلح فصلا . فما هو ذلك المعنى البارز الذى تحمله كل كلمة والذى من أجله قدمنا تلك التقدمة وله صدرنا هذا التصدير هو بلا اجهاد فى الفكرة ولا اطالة فى التعبير أن يلتزم الشاعر فى شعره وزنا وقافية يجعلانه مقيدا منظوما ويتحرر منهما الناثر فيجئ كلامه مطلقا منثورا. واذن النثر أبسط من الشعر وفى الشعر كلفة ليست فى النثر والنثر أقرب منالا ورجاله أكثر عددا والشعر أصعب محاولة والشعراء آحاد فى أوساط الناس وهنا نسأل نواميس الطبيعة والكون وعوامل النشوء والارتقاء أيهما لذلك يجب أن يكون أسبق كونا وأقدم وجودا فيكون الجواب لامحالة ما أجبنا به آنفا من أن النثر أسبق من الشعر

وليس انحيازنا فى التفرقة بين النثر والشعر الى جانب اللفظ دون المعنى لاننا لانعبأ بالمعانى أو لأننا نسوى بينهما فيها فما يجهل أقل الملمين بالأدب أن الشعر يعتمد على الخيال أكثر مما يعتمد على الحقيقة وأنه يستوحى الشعور أكثر مما يستوحى الفكر على عكس النثر فيهما ولكن مهما أغرقنا فى التفرقة المعنوية فليس فى استطاعتنا أن نباعد بين الخيال والنثر ولا بين الشعر والحقيقة فكم نثر أوغل من شعر فى التخيل والتصوير والتعبير عن الوجدان والشعور وكم شعر هو وعاء الحكمة والفلسفة وأدخل فى باب التفكير منه فى باب الخيال انما انحزنا إلى جانب اللفظ للابانة عن وجه التسمية بالنثر والنظم وأنها لم تك عبثا ولم تأت اعتباطا انما وضعها الواضعون عن بصيرة وفكر لتكون خير معبر عن الفارق وأوضح مترجم عن التمييز نعم عطف الواضعون على النظم فوضعوا له اسما آخر هو الشعر اشارة منهم إلى أن الوزن والتقفية وان وقعت بهما المفاصلة والمخالفة ليسا وحدهما المكونين للشعر بل لابد أن يغاب على معناد الشعور حتى يكون اغترافه من ينابيع العاطفة والخيال أكثر مما يغترف من ينابيع الحقيقة والتفكير .

يقولون المخالفون فى الفكره إذا كان النثر أسبق من الشعر فهابالنا نجد للامم القديمة شعرا ولا نجد لها نثرا ولكن فاتهم أن تلك قضية لانفهمها كما أصدروها ولا نستسيغها كما هيئوها الا إذا سلمنا لهم بقضيتين أخريين كلتاهما أبعد عن العقل من الاخرى

فأما أولاهما فانهم يعنون بالأمم القديمة أول مايعنون اليونان والرومان فيعنون عنهما النثر ويستبقون الشعر كانما كل افراد هاتين الامتين أوأفذاذهما كانوا شعراء وكأنما لم تهيء أحوالها الطبيعية — والأولى أمة فلسفة ومنطق

والثانية أمة تقنين وتشريع ثم هما دعامتا حكم وفتوح — أحدا من رجالاتهما ليدافع عن فكرة أو يعلل لقانون أو يدعو إلى حرب وقتال. بل كان الأمير مع العقل والاطوع للفكر أن يقولوا كان لها نثر وشعر ولكن الشعر كان قليلا والقليل محروص عليه نوعته الأفهام وتناقلته الرواة فى وقت تفشو فيه الامية وتندر أو تنعدم الكتابة التى لا يتسع لقيد النثر سوادا ثم الشعر مع ذلك أيسر حفظا وأكثر ذيوعا نعم كان لهم أن يقولوا ذلك فيقبل القول ويستقيم الاستنباط ويكونوا منطقيين كما يدعون

وأما الثانية فانهم يريدوننا على أن العرب فى جاهليتها لم يك لها نثر وأن ما أثرعنها موضوع مختلق وهذا لعمرى تهجم على العقل ومطالبة لنا أن نكون أمامهم أشباح أناسى لا أناسى ذوى عقول والا فكيف لم يك للعرب فى جاهليتها نثر وقد تحداهم القرآن الكريم فى النثر ووصفهم بأنهم كانوا قوما لدا واللدد فى اللغة شدة الخصومة والمحاجة تشيا مع ماهو مقرر معروف من أن التحدى لا يحتفظ بكيانه ولا يكون له قوامه الا اذا وقع لكل أمة فى الباب الذى تزعم فيه نبوغا وتدعى لنفسها عليه قوة واقتدارا وإذا كان الامر هنا كما يقولون أفما كان الاجدر بالقرآن أن ينزل كما نزلت سائر الكتب قبله بلغة لا يرتفع فيها الى ذروة الفصاحة كما ارتفع حتى يكونوا أفهم لمعانيه وأقدر وقد نزل لهم على الانتفاع بما حواه ثم يلتمس النبي للتحدى منحى آخر غير الفصاحه والبيان وإذا أبي المخالفون إلا الفصاحة والبيان فان فى مقدورنا مجاراة لهم أن نقول كان ينبغى لذلك أن ينزل القرآن شعرا لا نثرا لانهم لازالوا يدينون لبعض الجاهليين بالقدرة على قول الشعر لولا أن فى تلك المجاراة هدما لما لا نرتضى ولا يرتضون فقد جرد الله نبيه من أن يكون شاعرا كما جرده من أن يكون قارئا وباعد بين القرآن والشعر فأعجز به منثورا أمة ذات قدرة فائقة على النثر

وقد أثر عنها فيه ما يؤيد تلك القدرة ويشهد بها ولكن ضاع معظمه وبقى القليل خضوعا لسنة الكون فى الاضاعة والابقاء فلا محل اذن للشك فى هذا القليل انما الوجه فى الشك يكون إذا كثر أو باد

ويقولون أيضا إن فى عوام الأمم الحديثة من يقول الشعر بلغاتهم بينما لايحسن أحد منهم النثر وهذا قول نسلم بشطره الاول دون الثانى فان من يختلط بطبقات العوام ويرقب عن كثب مجرى أحاديثهم ومحاوراتهم يجد فيهم كما نشهد فى عوام المصريين مثلا سمارا تدار حولهم الحلقات وترهف اليهم الاسماع فلا يزالون يلقون من عذب الحديث وجميل القصص مالو كان هناك تدوين للغتنا العامية لكان فى الذروة من نصوصها والقمة من آدابها . وان فى تراشق امرأتين تختصمان فى أحقر الازقة وأدنأ الحارات لروعة لهذا الخصام وقوة بيان لمناحيه لاتقل عن مثيلاتها فى محاورة أو منافرة مما دون للغة مثالا لقوة العارضة وآية على الاقتدار . وهل تجردت حياتنا العامة من حوادث تدفع ذا رعاية ورياسه أن يحرض ويستنهض أو يخوف ويسترجع وذا قرابة ولحمة أن يوصى ويرشد ويعظ ويذكر أم هل خلت عاميتنا من حكم وأمثال تضارع فى قوة المعنى وشدة الايجاز نظائرها القديمة وتحتل من قلوب السامعين الآن ما كانت تحتله تلك فى القديم لى لم تخل فى نثرها من شىء هو لنثر أختها العربية ولكن كثرته وانتدار السواد عليه صرف الاذهان عن تناقله وروايته إلى شعرها الذى خلا من كثير مما حواه الشعر الصحيح فقل قائلوه واستخدم دون النثر فيما كان أبقى له وأدعى إلى حفظه من حداء وغناء مع مافى طبيعته فضلا عن تلك الحاجة وهذى القلة من سهولة الحفظ وسرعة الاستذكار

ثم هم يقولون ان الشعر وجد قبل النثر وحين ضاقت أوزانه عن مظاهر العقل تحلل الانسان منه إلى النثر ومعنى هذا ان كانت لنا عقول ان العقل

الانساني فى طفولته كان قديرا على أن يعبر عما يريده بهذا الكلام الموزون المقفى ولكنه بعد أن ترقى وجاوز دور الطفولة والأدوار التى أعقبته، فتم نضجه واستوى ارتد عاجزا عما كان عليه قديرا ولجأ فى تعبيراته إلى الكلام المطلق من قيد التقفية والوزن . يا له حكما عليه من أولئك المخالفين إلا أن يعاند الطبيعة وما اتفق عليه الناس مرغمين دون أن يكون لهم إلى الخلاف فيه لو أرادوه سبيل ولسنا ندرى أيذكرون نتيجة لهذا أن الانسان خلق متحضرا ثم تبدى أم يزعمون أن اللغة وحدها شذت عن هذا الناموس العام أو أن الشعر على فرض سهولة التقفية والوزن خلو من كل منطق وتفكير. الحق أنا لا ندرى عنهم ماذا نقول. فالشعر بالغا ما بلغ من تصور وخيال لاغنى له فى ذلك وفى مراعاة وزنه وقافيته عن عقل يسدى وفكر يهدى فما بالنا اذا كان بالفلسفة ناطقا ولادق نزعات العقل مصورا وقديما شبهوه بالدر المنظوم وما كان النظم بغير مجهود وتدبير وقالوا ان من الشعر لحكمة وماخلا منها منذ عرف فى سالف الحقب وسابق الزمان

بقيت قالة أخيرة حملهم عليها التسليم ببعض الواقع هى قولهم إنا نقصد بالنثر المسبوق بالشعر النثر الفنى ولكنهم فى عجز أو تعاجز عن تحديد هذا النوع الذى يريدون لانهم ان أرادوا بالفنية الاجادة التى نطالعها فى أنواع المنثور من حكمة ومثل وخطبة ووصية ومفاخرة ومنافرة على أن يسلموا للجاهليين فى ذلك بما هو مأثور قلنا لهم إن النثر قد بلغ اذن قبل الاسلام درجة لاتقل فى مداها وقوة فصاحتها عما وصل اليه الشعر إذ ذاك وأن تلك الدرجة ما كانت لتكون دون أن يضرب النثر فى القدم إلى قرون ينعدم فيها الشعر أو يكون طفلا يحبو بينا النثر قائم يجرى على قدمين هذا إلى ماقدمنا من السنة القاضية بسبق البسيط على المركب والبسير على العسير وما تلا ذلك من مناقشة مايقولون

فان انكروا هذا المأثور كما يدعون رددنا عليهم ذلك الانكار بما لا سبيل لهم معه إلى كلام لانهم يعترفون بما ورد عن صدر الاسلام من كل هذه الانواع ثم يعترفون مع ذلك بما لها من فنية فائقة على هذا الاعتبار ضاربين المثل بكلام رسول الله والصحابة وكثير من المخضرمين فهل كان هؤلاء جميعا قبيل الاسلام من الفهاهة بحيث يزعمون ثم انقلبوا بين عشية وضحاها نثرين مهمرين ؟ انا ننتظر منهم الجواب. أما إذا حددوا الفنية بالكتابة وأساليبها وصناعة الانشاء ونظمها مما يسوق اليه تحضر الامم ويدفع به تقدم العمران فانهم ينصرفون بذلك التحديد إلى ما انصرف اليه الناس واذن فلا جدة ولا خلاف ولكن ذلك لا يرضيهم لانهم يأبون فى هذا شأنهم فى غيره إلا أن يكونوا مجددين وذوى خلاف

النثر الجاهلى

أقسامه وأنواعه

اذا تتبعنا مادة المنثور الجاهلى لنرى كيف تتألف ألفاظها وتترابط أجزاؤها نجد أن منها ما تحرر من كل قيد فأطلق الناثر الكلام فيه اطلاقا وأرسله ارسالا ومنها ما فصله جملا يزاوج بين كل اثنتين أو أكثر منها ومنها ما أضاف فيه إلى هذا الازدواج اتحاد التقفية فى الفواصل فهو اذن ثلاثة أقسام قسم خلا من الازدواج والتقفية هو المرسل وآخر كان فيه الازدواج فى الفواصل دون التقفية هو المزدوج أو المفصل وثالث ضم إلى الازدواج التقفية هو المسجوع ولا حاجة بنا بعد الذى تقدم فى سبق النثر على الشعر أن نقول هنا إن المرسل لابد وجد قبل المزدوج وهذا تقدم المسجوع فان ذلك من الضرورى المفهوم انما الحاجة أن نقول إن السجع احدى الحلى اللفظية ذات التأثير البين إذا جاء عفوا غير متعمد ولذا التزمه الكهان والعرافون وأطالوا فيه لحسن وقعه على الاسماع وشدة تأثيره فى الطباع وسيتضح كل هذا فيما سنسوقه من نماذج لأنواع النثر فله أنواع كما للشعر فنون هى الحكم والأمثال. والمفاخرات والمنافرات. والخطب والوصايا. وهاهى ذى

١ — الحكم والامثال

الحكمة قول رائع يتضمن حكما صحيحا مسلما به. والمثل قول محكى سائر يقصد منه تشبيه الذى حكى فيه بالذى قيل لاجله وهما صورة للكلام تصل إلى

الغاية القصوى فى البلاغة من حيث ايجاز اللفظ واصابة المعنى وحسن البيان فترتاح اليها الطباع وتنشط لحفظها النفوس وتميل إلى الاحتجاج بها العقول لانها تورث الكلام رواجا وتكسبه حسنا وقبولا. وكما تكون الحكم والامثال نثرا تقعان شعرا واكثرهما فى النثر أو فى عددا وأكثر دورانا ولذلك عدا من أنواعه لا من فنون الشعر

ولقد فاضت الحكمة على ألسنة الكثيرين من العرب لما أفاض الله على هذه الامة فى بداوتها من سلامة الفطرة ورجحان الفكر فكثر فيهم العقلاء الذين تفجرت ينابيع الحكم على أيديهم فعرفوا بالحكماء وانصاع اليهم السادة والاشراف للتقاضى فى المنافرة وفض المنازعة فى الخصومات فكان قولهم مرضيا وحكمهم حتما مقضيا نذكر منهم على سبيل التمثيل أكثم بن صيفى التميمى وعامر بن الطرب العدوانى

فأكثم كان من حكماء تميم وحكامها ذا فصاحة وبيان وعلم بالانساب والاخبار ومن حكمه. ويل للشجى من الخلى ، وبل لعالم أمر من جاهله ، مقتل الرجل بين فكيه ، إن قول الحق لم يدع لى صديقا ، فى طلب المعالى يكون العناء ، لم يذهب من مالك ما وعظك ، يتشابه الامر إذا أقبل فاذا أدبر عرفه الكيس والاحمق ، نعم لهو المرأة المغزل . وقد كان جل كلامه فى المجامع مبنيا على الحكمة وضرب المثل كما هى الحال فى خطبته أمام كسرى فى وفود العرب وفى وصاته لقومه حين ظهر النبى صلى الله عليه وسلم ولبنيه حين حانت وفاته فقد جاءت كلها ملأى بالحكم الناصعة والعظات البالغة

وعامر كان من حكام قيس وذوي المكانة فيها ومن كلامه. رب أكلة تمنع أكلات ، رب زارع لنفسه حاصد سواه ، الرأي نائم والهوي يقظان ،

ويل أمها نصيحة لو كان من يقبلها ، من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له وكان الباطل أولى به ، من طلب شيئا وجده وان لم يجده أوشك أن يقع قريبا منه ، إن مع السفاهة الندامة والعقوبة بكل وفيها ذمامة ، لو كان يميت الناس الداء لاحياهم الدواء

ويوجد غير هذين حكماء كثيرون وحكيمات كغيلان بن سلمة الثقفى وربيعة بن حذار الاسدى وسلمى بن نوفل الكناني وعمرو بن حممة الدوسى وذى الاصبع العدواني وكهند بنت الخس الايادية ، وحذام بنت الريان اليمنية. ومن أقدم حكماء العرب لقمان وينسب اليه من الحكم. رب أخ لك لم تلده أمك ، الصمت حكم وقليل فاعله ، آخر الدواء الكى. ولكن العبرانيين ينازعون العرب فيه ويدعونه لانفسهم ويروون له حكما فى كتبهم وليس لأحد الطرفين دليل حاسم ضد الآخر كما أن كثيرا من الحكم نسبت اليه على سبيل الشهرة لا التحقيق لجيئها غفلا من النسبة إلى ذويها ولصعوبة القطع فى معظم الحكم بنسبتها إلى قائليها لكثرة ترددها على الالسنة وتداول الاستشهاد بها فى الكلام

هذا وكما كانت العرب قديرة على قول الحكم كانت كذلك وأقدر فى ضرب الامثال فليس بينهما من فرق سوى أن المثل لابد فيه من أصل واقع ينقل عنه وقد يفرض له ذلك الاصل فرضا إذا صدر عن حيوان أو نبات أو جماد وتعرف أمثال النوع الاول بالحقيقية والثانية بالفرضية . والامثال بنوعيها مرءاة ترينا أحوال الامة فى كثير من نواحيها وميزان نزن به إلى قدر أدبها ولغتها ورقيها وانحطاطها

ولقد عنى السلف عناية كبيرة بتدوين الامثال. ومن خير ماوصلنا فى هذا الباب جمهرة الامثال لأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ومجمع الامثال لابي الفضل الميدانى المتوفى سنة ٥١٨ هـ وهو أنظمها وأوفاها ففيه أكثر من

ستة آلاف مثل رتبت على حروف المعجم وفى آخر كل باب منها ما جاء على أفعل للعرب ثم للمولدين وهذا بعض من كل نوع

الامثال الحقيقية

١ — تجوع الحرة ولا تأكل بثديها . يضرب فى صيانة الشخص نفسه عن خسيس المكسب وهو للحارث بن سليل الاسدى يقوله لامرأة تزوجها على كبر منه وهى شابة فلما بنى بها بكت فقال المثل وطلقها .

٢ — الحديث ذو شجون . يضرب للقول يجر بعضه بعضا وقائله أد بن طابخة

٣ — سبق السيف العذل . يضرب للفائت يستحيل تداركه وقائله ضبة ابن أد بن طابخة

٤ — ما يوم حليمة بسر . يضرب فى كل أمر متعارف مشهور وقائلته حليمة بنت الحارث بن أبى شمر الغسانى وكان أبوها وجه جيشا الى المنذر بن ماء السماء اللخمى فأخرجت للجنود طيبا طيبتهم به وكان يوما مشهودا فقالت المثل

٥ — قطعت جهيزة قول كل خطيب . يضرب لمن يقطع على الناس ما هم فيه بحماقة يأتى بها وسببه أن قوما اجتمعوا يخطبون فى صلح بين حيين قتل أحدهما من الآخر قتيلا ويسألون الرضا بالدية وبينما هم فى ذلك جاءت أمة يقال لها جهيزة قائلة (إن القاتل قد ظفر به بعض أولياء المقتول فقتله) فقالوا عند ذلك هذا المثل .

٦ — إن أخاك من واساك . يضرب فى الحث على مراعاة الاخوان وقائله خريم بن نوفل الهمدانى .

٧ — ان العوان لا تعلم الخمرة . يضرب للعالم بالامر المجرب له والعوان المرأة النصف بين الفارض والبكر والخمرة هيئة الاختمار وهو لبس الخمار

٨ — ان خيرا من الخير فاعله وان شرا من الشر فاعله : يضرب فى الحث على فعل الخير والبعد عن الشر وقد ورد على لسان واعظ لعمرو ابن هند

٩ — انغدا لناظره قريب . يضرب فى الامر يرجي قرب وقوعه وقائله قراد بن أجدع للنعمان بن المنذر حين قال لهما أراك الاها اكا غدا فقال المثل

١٠—١٩ هذا وقد تستتبع الحادثة الواحدة ضرب أمثال عدة ومن أجمع الحوادث فى ذلك ما رووه فى أصل المثل (ثكل أرأمها ولدا) من أن رجلا يقال له بيهس كان سابع سبعة إخوة فأغار عليهم ناس بينهم و بينهم حرب فى ابل لهم فقتلوهم الا بيهس هذا تركوه لانه كان يحمق وكان أصغرهم ولم يشاءوا أن يحسب عليهم رجلا ثم انهم نحروا جزورا وكان اليوم قائظا فقالوا ظللوا لحمكم لا يفسد فقال بيهس (اكن بالاثلاث لحم لا يظلل) فذهبت مثلا ولما أخذوا يشوون ويأكلون قال أحدهم ما أطيب يومنا هذا وأخصبه فقال بيهس (اكن على بلدح قوم عجفى) فذهبت مثلا ثم أتى بيهس أمه فأخبرها الخبر فقالت وما أتى بك من بين اخوتك فقال (لو خيرت لاخترت) فأرسلا مثلا ولما أخذت أمه تعطف عليه وترق له قال الناس لقد أحبت أم بيهس بيهسا فقال (ثكل أرأمها ولدا) فذهبت مثلا ثم ان أمه أخذت تلبسه ثياب اخوته فيلبسها ويقول

(حبذا التراث لولا الذلة) وهذا مثل أيضا وحدث أنه مر على نسوة يصلحن عروسا لاهدائها إلى بعض قتلة إخوته فرفع ثوبه حتى غطى رأسه فقلن له ويحك ماتصنع يابيهس فقال (البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها واما بوسها) فذهبت مثلا ثم انه جلس مرة يأكل وحده ويقول (حبذا كثرة الايدى فى غير طعام) فأرسلها مثلا وقالت أمه لايطلب هذا بثأر أبدا فقالت لها امرأة سمعتها (لاتأمنى الاحمق وفى يده سكين) فذهبت مثلا ثم انه علم أن أناسا من أشجع ومنها قتلة إخوته فى غار فجاء إلى خال له يدعى أبا حنش فقال له (هل لك فى غنيمة بارده) فأرسلها مثلا ثم انطلقا حتى اذا كان على باب الغار دفع بخاله وقال ضربا أبا حنش فقال من فى الغار ان أبا حنش ليطل فقال أبو حنش (مكره أخاك لا بطل) فذهبت مثلا كان العاشر فى هذه الحادثه

الامثال الفرضية

١ — كيف أعاودك وهذا أثر فاسك . تزعم العرب على لسان حية كانت فى واد فنهشت رجلا فقتلته فذهب أخوه ليقتص منها فعاهدته على أن يتركها وتعطيه كل يوم دينارا ومكثا على ذلك دهرا ولما أثرى الرجل ذكر أخاه وصمم على قتل الحية ولكنه لما ضربها بفأسه أخطأها وأثرت الفاس فى باب جحرها ثم انها قطعت عنه الدينار فندم فقال لها هل لك فى أن نتواثق ونعود إلى ماكنا عليه فقالت (كيف أعاودك وهذا أثر فأسك) فذهبت مثلا يضرب لمن لايجاب إلى عهد لظهور آثار غدره

٢ — انما أكلت يوم أكل الثور الابيض . يروى على لسان ثور من ثلاثة أبيض وأسود وأحمر كن فى أجمة ومعهن فيها أسد لايقدر على أحد منهن لاجتماعهن فقال يوما للاسود والاحمر لو تركتماني آكل الابيض لصفت لنا الاجمة لأن لونه مشهور يدل علينا فقالا دونك فكله فأكله

وبعد أيام قال للأحمر لونى لونك فدعنى آكل الاسود لتصفو لنا الاجمة فقال دونك فكله فأكله حتى إذا كانت أيام أخر قال للاحمر اني آكلك لامحالة فقال ولكن دعنى أنادى ثلاثا قال افعل فنادى (إنما أكلت يوم أكل الثور الابيض) فأرسلها مثلا يضرب لمن يسلم فى أعوانه فيكون فى هذا التسليم هلاكه

٣-١١ هذا ومن الحوادث الفرضية ما يستدعى صدور جملة أمثال كما تقدم فى الحقيقة ومن ذلك ما تزعمه العرب من أن أرنبا التقطت تمرة فاختلسها الثعلب فأكلها فانطلقا يختصمان إلى الضب فقالت الارنب يا أبا الحسل قال (سميعا دعوت) قالت أتيناك لنختصم اليك قال (عادلا حكما) قالت فاخرج الينا قال (فى بيته يؤتى الحكم) قالت اني وجدت تمرة قال (حلوة فكليها) قالت فاختلسها الثعلب قال (لتنسه بغى الخير) قالت فلطمته قال (بحقك أخذت) قالت فلطمنى قال (حر انتصر) قالت فاقض بيننا قال (قد قضيت) ثم قال (حدث حديثين امرأة فان لم تفهم فأربعة) فهذه تسعة أمثال على لسان الضب يضرب كل منها فى مثل ماقيل لاجله وهى مروية فى مضرب المثل (فى بيته يؤتى الحكم) وفى هذا القدر من الامثال كفاية

٢ — المفاخرات والمنافرات

المفاخرة كلام يجرى بين اثنين أو أكثر أو على انفراد تمدحا بالخصال ومباهاة بالاصول وكان للعرب بها ولع شديد وافتنان كبير لانهم كانوا قبائل وبطونا بينهم من التناحر والتنابز ما أجمع فيهم نيران الحروب وجعل كلا على تمام علم بمآثره ومخازى سواه فتناولهم النزوع إلى المفاخرة من القمة إلى القاع

فيما بينهم وبين غيرهم من الامم كالفرس والروم وبينهم وبين أنفسهم فى يمن ونزار ثم فى ربيعة ومضر وفى بكر وتغلب من ربيعة وقيس وتميم من مضر وكذلك بين قبائل اليمن بعضها وبعض وهكذا لم يزل يتفاضل التفاخر فى بطونهم وأفخاذهم حتى تناول ابنى العم فى العشيرة الواحدة فكان على أشده وفى منتهاه. وكانت المفاخرة نوعا متميزا من أنواع المنثور وكالمفاخرة المنافرة وهى مثلها وأشد فى هذا الباب كان الرجلان إذا تنازعا الفخر وادعى كلاهما الفوق على صاحبه نفرا إلى حاكم يرضيانه ليقضى بينهما فمن فضله على صاحبه كان له غنم الحكم وعلى صاحبه غرم الجعل المفروض من الابل أو غيرها وكلا النوعين كثير الامثلة والوقائع

فمن المفاخرة ماروى من أن كسرى قال للنعمان بن المنذر يوما هل فى العرب قبيلة تشرف على قبيلة قال نعم قال فبأى شىء قال من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ثم اتصل بكمال الرابع فالبيت من قبيلته فيه وتنسب اليه قال فاطلب ذلك فطلبه فلم يصبه إلا فى آل حذيفة بن بدر الفزارى وآل حاجب بن زرارة التميمى وآل بسطام ابن قيس الشيبانى وآل الاشعث بن قيس الكندى فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائرهم عند كسرى وقال ليتكلم كل رجل منكم بما تر قومه وليصدق فكان حذيفة بن بدر الفزارى أول متكلم وكان ألسن القوم فقال قد علمت العرب أن فينا الشرف الاقدم والعز الاعظم وما تر للصنيع الاكرم فقال من حوله ولم ذلك ياأخا فزارة قال ألسنا الدعائم التى لا ترام والعز الذى لا يضام قيل له صدقت. ثم قام الاشعث بن قيس قبل ربيعة وتميم لقرابته من النعمان فقال قد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الاكثر وزحفها الاكبر وأنا غياث الكربات ومعدن المكرمات فقالوا ولم ياأخا كندة قال لانا ورثنا ملك كندة فاستظللنا بأفيائه

وتقلدنا منكبه الاعظم وتوسطنا بحبوحه الاكرم. ثم قام بسطام بن قيس فقال قد علمت العرب أنا بناة بيتها الذى لا يزول ودعرس عزها الذى لا يحول قالوا ولم ياأخا شيبان قال لانا أدركهم للثار وأضربهم للملك الجبار وأقومهم للحكم وألدهم للخصم. ثم قام حاجب بن زرارة فقال قد علمت العرب أنا فرع دعامتها وقادة زحفها قالوا ولم ياأخا تميم قال لانا أكثر الناس عديدا وأنجبهم طرا وليدا وأنا أعطاهم للجزيل وأحملهم للثقيل وبعدئذ قام قيس بن عاصم السعدى فقال لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم فى المكرمات دعائم وأثبتهم فى النائبات مقادم قالوا ولم ياأخا سعد قال لانا أدركهم للثار وأمنعهم للجار وانا لا ننكل اذا حملنا ولا نرام إذا حللنا. فقال كسرى حينئذ: — ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه وأسنى حباءهم وأكرم مآبهم

ومن المنافرة ما كان بين خالد بن مالك النهشلى والقعقاع بن معبد بن زرارة التميمى فقد تنافرا إلى أكثم بن صيفى أيهما أكرم وجعلا بينهما مائة من الابل تكون على المفضول فطلب اليهما أكثم أن يرجعا عما جاءا اليه فأبيا فكره أن يحكم بينهما ولكنه حبس الابل وبعث بهما إلى ربيعة بن حذار الاسدى ليقضى بينهما فلما قدما عليه وأخبراه بما جاءا من أجله قال هاتيا مكارمكما فقال خالد أعطيت من سأل وأطعمت من أكل ونصبت قدورى حين وضعت السماك ذيولها وطعنت يوم شواحط فارسا فجالت فخذيه بفرسه فقال وما عندك ياقعقاع فأخرج قوس حاجب بن زرارة وقال هذه قوس عمى حاجب رهنها عن العرب ووفى بها وهاتان نعلا جدى زرارة قسم فيهما أربعين مرباعا وهذا زربيه لم ير ناره خائف الا أمن ولم يمسك بطنب فسطاطه أسير الا فك فنادى ربيعة بن حذار إن السماحة واللهى والمرباع والشرف الاسبغ للقعقاع ألا انى نفرت من كان ابوه معبدا وعمه حاجبا وجده زرارة

هذا وكثير ما كان يعمد الحكم الى الصلح بين المتنافرين تفاديا للشر وحسما للخلاف فيقع كلامه فيهما من أروع الخطب فى الدعوة الى السلام والاعتصام بحبل المودة والوئام ومن ذلك ما كان من هاشم بن عبد مناف فى خزاعة وقريش حين نفرتا اليه فقد خطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة قال :-

أيها الناس نحن آل ابراهيم وذرية اسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصى بن كلاب وأرباب مكة وسكان الحرم . لنا ذروة الحسب والنسب ومعدن المجد ولكل فى كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته الا مادعا الى عقوق عشيرة وقطع رحم

يابنى قصى أنتم كغصن شجرة أيهما كسر أوحش صاحبه والسيف لا يصان إلا بغمده ورامى العشيرة يصيبه سهمه ومن أمحكه اللجاج أخرجه إلى البغى .

أيها الناس الحلم شرف والصبر ظفر والمعروف كنز والجود سؤددوالجهل سفه والايام دول والدهر غير والمرء منسوب إلى فعله ومأخوذ بعمله فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء واكرموا الجليس يعمر ناديكم وحابوا الخليط يرغب فى جواركم وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم . وعليكم بمكارم الاخلاق فانهارفعة واياكم والاخلاق الدنية فانها تضع الشرف وتهدم المجد وإن نهنهة الجاهل أهون من حزيرته ورأس العشيرة يحمل أثقالها ومقام الحليم عظة لمن انتفع به

فقالوارضينا بك أبا نضلة وكانت كنيته وتصالحا

ومما يذكر عن هاشم بن عبد مناف فى المنافرة أن أمية بن عبد شمس لما حسده مكانته فى قريش طلب منافرته فكره ذلك ولكن قريشا أكرهته عليها فتنافرا إلى أحد كهان خزاعة على خمسين ناقة سوداء تنحر بمكة وعلى الجلاء منها عشر سنين فلما نزلوا على الكاهن ابتدرها بقوله . والقمر الباهر

والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طائر وما اهتدى بعلم مسافر من منجد وغائر لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر فقال أمية من انتكاث الزمان أن جعلناك حكما فقال له تنافر رجلا هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة وأحسن منك وسامة وأقل منك لآمه وأكثر منك ولدا وأجزل منك صفدا ونفرها شما فأخذ هاشم الابل فنحرها وأطعم وخرج أمية إلى الشام فقضى بها الاجل المضروب. ويذكر المؤرخون أن هذه المنافرة كانت بمثابة التسجيل لما كان من عداوة راسخة بين أمية وهاشم ورثها عنهما بعد الابناء والاحفاد

٣ — الخطب والوصايا

منشأ الخطابة . أغراضها . تأثيرها . منزلتها

تفرقت العرب فى باديتها المترامية الاطراف الواسعة الاكناف قبائل متشعبة تتمسك كل منها بعصبيتها ونعرتها وتحرص على عزتها وكرامتها وتنقاد إلى رئيس هو ملاك أمرها وقوام شأنها ترى فيه رمز أنفتها وعنوان مجدها وتختاره من أكرم العناصر فيها وأقدرهم على التفاهم معها حتى يكون قلبها النابض ولسانها الناطق يهيب بهم فى كل حادث ويجمعهم لكل خطب فيكون له كلام ومنهم استماع. ومن ثم كان من ألزم سمات الرئيس وأظهر الصفات فيه مقدرته على القول وتملكه زمام البيان فنشأت الخطابة سليقة فى الرؤساء ونبغ فيهم من مصاقع الخطباء الجم الغفير حتى كان لكل قبيلة خطيب

فالخطابة اذن وليدة حاجة العرب الطبيعية ونظام عيشهم الاجتماعى ولقد رفع من شأنها فوق ذلك كثرة الدواعى اليها وانتشار الامية بينهم حتى كانت وحدها مفزعهم واليها إذ لا كتابة مرجعهم

فبها كانوا يحرضون على القتال وشن الغارات والأخذ بالثأر وبث الحمية فى النفوس وتحبيب الموت إلى الجبان فى بيئة تتطلب منهم ذلك كل وقت وآن.

وبها كانوا يدعون إلى السلم كلما اكتووا بنار الحرب فلا يزال خطيبهم يفيض فى أضرار القتال ومنافع السلام حتى ينزع ما فى صدورهم من غل ويستل ما بنفوسهم من حقد فاذا هم قد أخلدوا إلى السكون وعادوا اخوانا وادعين ولو إلى حين

وبها كانوا يتآمرون بالمعروف إذا نضب معينه ويتناهون عن المنكر إذا زخر تياره فيحببون فى الخير ويبغضون فى الشر ويوصون باقتناء المحامد والتخلق بالمكارم. وكثير من خطبائهم كان دأبه العظة والاعتبار وهمه التذكير والانابة ليخلص النفوس من أرجاسها ويطهر القلوب من أدرانها

وبها كان تفاخرهم بالاحساب والانساب وتكاثرهم بالاموال والأولاد وتباهيهم بالمقدرة على الكلام لمجرد الكلام والدلالة على فوقهم فى الفصاحة والبيان فى كثير من المجامع والاسواق

وبها كانوا يؤدون واجب السفارات بين بعضهم وبعض أو بينهم وبين مجاوريهم فى الاشياء العامة من تأمين سبيل أو إجارة تجارة أو تهنئة أو تعزية فلا يزالون يختارون للسفارة أغناهم بيانا وأوضحهم برهانا وأحضرهم بديهة وأقواهم ارتجالا مسوقين فى ذلك بحكم أميتهم وتعذر طرق الوصلة ببلادهم مما لم يدع للكتابة مجالا عندهم

على أن من أغراض الخطابة فوق ماتقدم ماكان فى الاملاك من خطب تلقى لربط أواصر المصاهرة بين العشائر وتحبيب المخطوب اليهم فى المخطوب لهم بذكر فضائل الآخرين وأنهم للاولين أهل وأكفاء

ولما كانت أغراض الخطابة على ماسلف ذات اتصال وثيق بحياة العرب وفى المكانة السامية من نفوسهم كان الخطباء يحفلون بخطبهم ويقبلون عليها من كل نفوسهم فيتخيرون لها من المعانى أشرفها ومن الالفاظ أفصحها لتكون أشد وقعا على النفوس وأبعد تأثيرا فى القلوب وأيقظ للهمم وأحث على العمل فان الاذن للكلام البليغ أصغى والطبع إلى المعنى الشريف أميل والكلام إذا صب فى قالب من البلاغة محكم الصوغ جذاب الشكل عظم اقبال السامعين على مايرغب فيه الخطيب ان كان يحبب واشتد نفارهم عما يرغب عنه ان كان يحذر ولو كانوا قبل استماعه على غير مايريد وليس ذلك بالمبالغ فيه فان من البيان لسحرا

ثم لم يفت الخطباء أن يتعودوا فى خطبهم كل مايفخم من هذا التأثير ويزيد فى شدته كأن يقف الخطيب على شرف من الارض حسن الزى مخصوص العمامة معتمدا على قوسه بيساره وفى يمينه عصاه وأن يكون جهير الصوت حسن الايقاع صائب الاشارة تام الوقار إلى غير ذلك مما يبلغ بالخطابة غايتها من نفوس السامعين وبالقول نهايته فى قلوب الشاهدين

وإذ كان للخطابة على حاجة العرب اليها وقصرها على السادة الأشراف منهم تلك الاغراض فى نبلها وهذا التأثير فى قوته فلا غرو أن كانت منزلتها أشرف منزلة ومكانتها أسمى مكانة وأن كان الخطيب فى كل قبيلة المرجع الذى اليه يرجعون وعنه يصدرون لما أمدته به رياسته وهداه اليه بيانه وهل لذى رياسة ما غنى عن قول ونزوع عن بيان فما بالنا إذا كان فى بداوة ليس فيها ماقد يغنى الحضرى عن الكلام وفيها مايدعوه هو إلى أن يقول ويطيل وهل لغير ذلك كان الرسل عليهم السلام مقاول خطباء ولامرما غير هذا قال جل شأنه عن لسان موسى عليه السلام « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى

ردءا يصدقنى إني أخاف أن يكذبون »

وكالخطب الوصايا إلا أن الخطب أوسع دائرة وأبعد مدى فهى للمشاهد والمجامع والايام والمواسم والتفاخر والتنافر ومن الوفود فى كل مهم لدي الملوك والأمراء والسادة والكبراء بينما الوصايا لاتعدو قوما مخصوصين فى أمر مخصوص كأن تصدر من سيد لعشيرته أو أب لبنيه أو امرأة لابنتها وأكثر ما تكون عندالاحساس بدنو أجل أو توقع فرقه. وهذى نماذج للنوعين فى كل ماذكر من أغراض

فمن خطب التحريض على القتال والثبات فى الميدان خطبة هانيء بن قبيصة الشيباني فى قومه بكر يوم ذى قار وقد تقدمت فى الايام

ومن خطب الدعوة إلى الصلح والجنوح للسلم خطبة هاشم بن عبد مناف فى خزاعة وقريش حين تنافرتا إليه وقد تقدمت فى المنافرات وهى بعينها شاهد على خطب التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر

ومن خطب العظة والاعتبار خطبة المأمون الحارثي فى نادى قومه وهى كما رواها صاحب الامالى عن جماعة آخرهم أبو عبيدة قال :

قعد المأمون الحارثي فى نادى قومه فنظر إلى السماء والنجوم ثم أفكر طويلا ثم قال :

أرعوني أسماعكم وأصغوا إلى قلوبكم يبلغ الوعظ منكم حيث أريد طمح بالاهواء الاشر وران على القلوب الكدر وطخطخ الجهل النظر إن فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر. أرض موضوعة وسماء مرفوعة. وشمس تطلع وتغرب ونجوم تسرى فتعزب. وقمر تطلعه النحور وتمحقه أدبار الشهور. وعاجز مثر وحول مكد وشاب مختضر ويفن قد غبره وراحلون لايؤوبون وموقوفون

لا يفرطون . ومطر يرسل بقدر فيجي البشر ويورق الشجر ويطلع الثمر وينبت الزهر . وماء يتفجر من الصخر الأصم فيصدع المدر عن أفنان الخضر فيحيي الأنام ويشبع السوام ويسقى الانعام . إن فى ذلك لاوضح الدلائل على المدبر المقدر البارىء المصور . يأيها العقول النافرة والقلوب النائرة أني تؤفكون وعن أى سبيل تعمهون وفى أى حيرة تهيمون وإلى أى غاية توفضون . لو كشفت الاغطية عن القلوب وتجلت الغشاوة عن العيون لصرح الشك عن اليقين وأفاق من نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة

ومن خطب التفاخر ما تقدم فى المفاخرات لبيوتات العرب ومن طوالها خطبة النعمان بن المنذر عند كسرى وعنده وفود الامم الاخرى وقد فضلهم على العرب ومثلها خطب الوفد الذى بعث اليه عقب ذلك وكلها بالعقد الفريد لابن عبد ربه

ومن خطب السفارات خطبة عبد المطلب بن هاشم فى وفد قريش إلى سيف ابن ذى يزن باليمن حين ظفر بالحبشة وأتت اليه وفود العرب لتهنئته ومدحه قال :—

ان الله أحلك أيها الملك محلا رفيعا صعبا منيعا شامخا باذخا وأنبتك منبتا طابت أرومته وعزت جرثومته وثبت أصله وبسق فرعه فى أكرم موطن وأطيب معدن . وأنت أبيت اللعن ملك العرب وربيعها الذى يخصب به وأنت أيها الملك رأس العرب الذي اليه تنقاد وعمودها الذي عليه العماد ومعقلها الذى تلجأ اليه العباد . سلفك خير سلف وأنت لنا منهم خير خلف فلن يخمل ذكر من أنت سلفه ولن يهلك من أنت خلفه . ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته أشخصنا اليك الذى أبهجنا الكشف الكرب الذى فدحنا فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة

ومن خطب الاملاك خطبة أبي طالب بن عبد المطلب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى تزوجه خديجة بنت خويلد رحمة الله عليها وهى من أقصد خطب الجاهلية قال : —

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا وجعلنا الحكام على الناس . ثم ان محمد بن عبد الله ابن أخى من لايوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجداً ونبلا . وان كان فى المال قل فانما المال ظل زائل وعاريه مسترجعة . وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وماأحببتم من الصداق فعلى

ومن وصايا السادة لعشائرهم وصاة اكثم بن صيفى التميمى لقومه قال: —

يابنى تميم لايفوتنكم وعظى ان فاتكم الدهر بنفسى . ان بين حيزومى وصدرى لكلاما لاأجد له مواقع إلا اسماعكم ولا مقار إلا قلوبكم فتلقوه بأسماع مصغية وقلوب واعية تحمدوا مغبته . الهوى يقظان والعقل راقد والشهوات مطلقة والحزم معقول والنفس مهملة والروية مقيدة ومن جهة التواني وترك الروية يتلف الحزم ولن يعدم المشاور مرشدا والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزال ومن سمع سمع به ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ولواعتبرت مواقع المحن ماوجدت إلا مقائل الكرام وعلى الاعتبار طريق الرشاد ومن سلك الجدد أمن العثار ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ويشغل فكره ويؤرث غيظه ولا تجاوز مضرته نفسه . يابنى تميم الصبر على جرع الحلم أعذب من جناء ثمر الندامة ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم وكلم اللسان أنكى من كلم السنان والكلمة مرهونة مالم تنجم من الفم فاذا نجمت فهى أسد محرب أو نار تلهب ورأى الناصح اللبيب دليل لايجوز . ونفاذ الرأي فى الحرب أجدى من الطعن والضرب

ومنها أيضا وصاة عامر بن الظرب العدوانى الذى تقدمت الاشارة اليه مع أكثم إذ قال له قومه وقد خشوا موته. إنك سيدنا وقائلنا وشريفنا فاجعل لنا شريفا وسيدا وقائلا فقال .

يامعشر عدوان كلفتمونى بغيا ان كنتم شرفتمونى فانى أريتكم ذلك من نفسى فأنى لكم مثلى. افهموا ما أقول لكم .

إن من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له وكان الباطل أولى به وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل ولم يزل الباطل ينفر من الحق .

يامعشر عدوان — لا تشمتوا بالذلة ولا تفرحوا بالعزة فبكل عيش يعيش الفقير مع الغنى. ومن يُسر يوما يُسَرّ به. وأعدوا لكل أمر جوابه. إن مع السفاهة الندامة والعقوبة تكال وفيها ذمامة. ولليد العليا العاقبة. والقعود راحة لا عليك ولا لك. واذا شئت وجدت مثلك. إن عليك كما أن لك. وللكثرة الرعب وللصبر الغلبة. ومن طلب شيئا وجده وان لم يجده يوشك أن يقع قريبا منه .

ومن وصايا الآباء للابناء وصاة ذى الاصبع العدوانى حين احتضر لابنه أسيد قال :-

يا بنى إن أباك قد فنى وهو حى وعاش حتى سئم العيش وانى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته فاحفظ عنى . ألن جانبك لقومك يحبوك وتواضع لهم يرفعوك وابسط لهم وجهك يطيعوك ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم واسمح بمالك واحم حريمك وأعزز جارك وأعن من استعان بك وأكرم ضيفك وأسرع النهضة فى الصريخ فان لك أجلا لا يعدوك وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا فبذلك يتم سؤدوك

ومن وصايا النساء لبناتهن ماذكره الميداني عن المفضل الضبي فى المثل «ماوراءك يا عصام» ولن نروى منه إلا محل الاستشهاد قال :

لما أرادوا أن يحملوا ابنة عوف بن محلم الشيباني الى زوجها الحارث بن عمرو ملك كندة قالت لها أمها توصيها : —

أى بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما اليها كنت أغنى الناس عنه ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال. أى بنية إنك فارقت الجو الذى منه خرجت وخلفت العش الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا فكوني له أمة يكن لك عبدا وشيكا . يا بنية احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخرا وذكرا الصحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة. والتعهد لموقع عينه والتفقد لموضع أنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك الا أطيب ريح والكحل أحسن الحسن والماء أطيب الطيب المفقود . والتعهد لوقت طعامه والهدو عنه عند منامه فان حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة. والاحتفاظ ببيته وماله والارعاء على نفسه وحشمه وعياله فان الاحتفاظ بالمال حسن التدبير والارعاء على الحشم والعيال جميل حسن التقدير. ولا تفشى له سرا ولا تعصى له أمرا فانك ان أفشيت سره لم تأمنى غدره وان عصيت أمره أوغرت صدره . ثم اتقى مع ذلك الفرح ان كان ترحا والاكتئاب عنده ان كان فرحا فان الخصلة الأولى من التقصير والثانيه من التكدير . وكوني أشد ماتكونين له اعظاما يكن أشد مايكون لك اكراما وأشد ماتكونين له

موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة . واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت والله يخير لك

هذا وكتب الادب ملأى بأخبار الخطباء والحكماء والموصين وضاربي الامثال وذوي الاسجاع من الكهنة والعرافين ولا محل هنا للمزيد عما سقنا ففيه الغناء لما أردنا من نماذج على سبيل التمثيل لأنواع النثر وأقسامه فى آن.

الشعر الجاهلى

١ — أولية الشعر عامة ولدى العرب خاصه

ليس للشعر باعتباره تلك المعانى المؤثرة التى تتصل بالشعور وتعبر عن خلجات النفوس وتنساق لهوى الغرائز والميول أولية تعرف فانه بهذا المعنى يكاد يكون مخلوقا مع الانسان منذ أن هبط الى هذا الوجود مجموعة غرائز فطرية يخضع لها فى كل أعماله خضوعا لايحد منه عقل ولا يقف فى سبيله فكر لان التعقل والتفكر لم يوجدا إلا بعد حقب طال أمدها اكتسب الانسان خلالها من التجارب ماأوجد له عقلا بجوار الغريزة فصارت إرادته مرتكزة عليه بعد أن كانت مسخرة دون تفكير للغرائز الحافزة والميول الدافعة . ولكن ليس مما يسيغه عقل ولا تسمح به سنة أن تكون تلك المعانى قد ظهرت أول ماظهرت فيما نسميه شعرا بالمعنى الاصطلاحى أى فى قوالب محدودة من الأوزان والقوافى فان هذه القوالب فى كل اللغات أثر من آثار حضارتها والحضارة لايمكن أن تكون إلا بعد قرون طويلة تقطعها اللغة منذ نشأتها الى حيث تظهر بها أمثال هذه الآثار .

فالمعانى الشعرية وجدت حيث وجدت مطلقة الاسلوب من كل قيد وأخذت فى التدوج الى أن بلغت الغاية التى نرى من قيود ثم جهلت هذه الخطوات الاولى كما جهلت سائر أوائل الاشياء . على أن العقل يكاد يجزم فى لغتنا العربية أن أول خطوة خطاها شعرها كانت متمثلة فى الاسجاع وبعدها كان تساوى الفواصل فيها ثم خضوع هـذا التساوى شيئا فشيئا لأقيسة التفاعيل وبذلك

تحقق الوزن فى البيت الواحد مع اتحاد الحرف الاخير فى الشطرين كما نراه فى منظومات العلوم والفنون وهذا أهون أنواع الشعر . وتلا هـذه الحالة التقيد بحرف القافية فى الاعجاز مع التحلل منه فى الصـدور وفى خلال ذلك وعلى توالى القرون تنوعت الاوزان وطالت القوافى وبلغ الاقتدار على التقيد مداه حتى وصل الى الاراجيز وهى أصعب أنواع الشعر . ومن هذا يفهم أن الشعر العربى لا بد له فى معناه من التأثير المعتمد على الشعور وفى لفظه من التقيد بالوزن والقافية . واذا ماخلا من هذين معاً أو من أحدهما سمى نثراً فحسب أو نثرا شعريا أو نظما لا شعرا . فالشعر على اطلاقه هو ماعنينا وعلى هـذا القصد ذكرنا ماذكرنا آنفا من أن النثر أسبق منه الى الوجود .

ولما كان المعنى الشعرى فطريا تهدى اليه الطبيعة البشرية إذ لا بد منه للانسان فى التسرى عن نفسه وقت الشدة والتسلى به حين الوحدة ظهر الشعر على ألسنة الامم جمعاء ولم تختص به أمة دون أخرى ولكنها لم تكن فيه سواء فكانت أكثرهن فيه قولا أصلحها له بيئـة وأوفقها له لغة . ومن ثم كانت العرب فى جاهليتها من أقدر الشعوب عليه إن لم تكن أقدرها جميعا فقد قالته رجالا ونساء شبانا وشيبا سادة وسوادا ولم يعدم أقلهم فيه شأنا الابيات يقدمها فى حاجته أو يعبر بها عن معنى فى نفسه وان لم يك من الملقبين بالشعراء لأن طبيعة العيش البدوي تهدى الى الشعر وتدعو الى الغناء به .

فمن حياة بسيطة ساذجة لا شىء فيها يطغى على الفطرة أو يميت الوجدان بل كل مافيها ينميهما ويزيد من قوتهما . فالسماء صافية الرقعة متألقة الكواكب والارض منبسطة الأديم لامعة الرمال متصلة بالعائش فيها تمام الاتصال متجلية له بكل ماعليها من حيوان ونبات . الى رحلة طويلة دائمة لا يفارق العربى فيها راحلته فلا يزال يسوقها وهى تقطع المفاوز والقفار بتلك الحركة

المرقصة كارجوحة الطفل لاتكاد اليد تهزها حتى ينطلق اللسان فيغنيها . كذلك هو انطلق لسانه لراحلته فلم يزل يحدوها بألحان الشعر ويرفع من ورائها عقيرته بأهازيجه . ولقد قالوا إن أول ما نشأ من الاوزان الرجز وما الرجز إلا قياس رسمه فى مخيلة العرب سير الابل فى الصحراء فناض الشعر على ألسنتهم أول ما فاض بألفاظ هى وتفاعيل الرجز فى الوقع سواء .

تهيأت للعرب إذن مذ كانت العرب دواعى الشعر بما تهيأ لهم من سلامة فطرة وملاءمة بيئة ثم كشف عيشهم ما كنفه من ضنك ومشقة وتفرد وعزلة فهرعوا اليه يتخذونه لدى الشدائد عونا وفى الوحدة أنيسا حتى كان لحنهم وهجيراهم شأن ذوى الاعمال المتعبة والخلوة الموحشة لا غنى لهم عن الغناء به ولا محيص . ولقد ذال من مطاوعته لهم حتى صار سلسبيلا جاريا تلك اللغة الذلول ذات الغنى الكبير فى مفرداتها ومرادفاتها والتصرف الاكبر فى أساليبها وتراكيبها فنبغوا فيه نبوغا عدد من أوزانه وأطال فى قوافيه وجعله فى هذين الامرين ذا منزلة لم يدانه فيها سواه ، وأنى لغيره تلك المداناة دون أن تتهيأ لغته فى مفرداتها وأساليبها لما تهيأت له لغة الضاد فى التصرف البعيد البديع الذى مكن لذوى الصناعة اللفظية من الاتيان بأشياء لولاه كانت من المعجزات . وفى مقامات الحريرى من هذا الضرب فنون وألوان ، فمن مقامة تتضمن رسالة إحدى كلماتها معجمة والاخرى مهملة الى مقامة تتضمن أخرى كل كلمة فيها أحد حروفها معجم والآخر مهمل الى مقامة تتضمن رسالة تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه الى مقامة تتضمن عبارات تقرأ طردا وردا فلا يغيرها عكس حروفها الى غير هذا مما ليس له نظير ولا شبيه فى أية لغة أخرى.

وكما كانت العرب فى جاهليتها ذات قدرة على الشعر فائقة وشاملة معا كذلك كانت من أقدم الامم المعروفة به . فأولية الشعر عندها تكاد ترجع الى

أوليتها وهى أمة قديمة العهد ذات صلة بفجر التاريخ . غير أن بدواتها وأميتها حالتا بينها وبين تدوينه بنقش على أثر أو كتب فى كتاب ، فلم يك لها حياله إلا تعليقه بالحفظ والاذكار فأخذ يطوى بطي الحقب ويذهب بذهاب الحفظة وهيهات للحفظ وحده أن يبقى معه مأثور على تلك القرون الطوال . لذلك كان الضياع حليف الشعر الجاهلى فلم يسلم لنا منه وراء قرنين قبل الهجرة شيء كما لم يسلم منه فى هذين القرنين بالنسبه لما ضاع إلا القليل .

وأول مأثور عرف كان فى قبائل ربيعة بنجد والعراق وبخاصة تغلب وبكر أيام حرب البسوس ومن أقدم شعرائها ويقال إنه أول من قصد القصيد والصواب أول من عرف له القصيد المهلهل وهو عدي بن ربيعة التغلبي أخو كليب الذى هاجت بمقتله بين القبيلتين السالفتين الحرب السابقة فكان لها فى إذكاء الشعر بربيعة الاثر الكبير . ثم تحول الى قيس عيلان وكانت شعوبها تملأ نجدا وأعالى الحجاز . ومن قبائلها عبس وذبيان وبينهما بدأت حرب داحس والغبراء وتناولت معهما الكثير فكان لها من إذكاء الشعر فى قيس ما كان فى ربيعة لحرب البسوس . ومن قيس انتقل الى تميم وتميم مسعر الحروب فاستقر فيها وكانت أول نشوئها فى تهامة ثم نزحت الى شرقى نجد وبادية العراق . ولم يظهر فى مدركة إلا فى بطون سكنت البادية منها كهذيل وأسد وبعض كنانة وقريش وبهذا غلب الشعر على أكثر أهل البادية من مضر وربيعة كما غلب على من ساكنهم بها من نازحى قبائل اليمن القدماء كطيء وكندة وغيرهما مما تقدم بيانه فى القبائل والبطون ، أما الحواضر فكانت قليلة فى ذاتها وكذلك كانت قليلة الشعراء .

واذا قلنا إن الشعر كان أقدم مما أثر منه بكثير فانا نستند فى قولنا هذا الى العقل والى المأثور ، فأما الى العقل فلأنه يأبى على الشعر الاباء كله أن يظهر

طفرة بذلك المظهر الذى كان عليه أيام حرب البسوس ، وما قصائد مهلهل فى وصف تلك الحرب وفى رثاء كليب أخيه إلا نتيجة حقب طويلة درج فيها الشعر حتى تم صقاله وتعددت أوزانه واستطالت قوافيه ولا بد أن تكون تلك القصائد مسبوقة بأمثالها فى العهد القريب وبشبيهات لها فى البعيد ، وهكذا القهقرى الى عهود سحيقة كان الشعر فيها فى صور المقطعات الصغار . وأما الى المأثور فلأنا نرى فى أقدم الشعراء المروى عنهم من يقول وهو امرؤ القيس

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن حذام

وابن حذام أقدم من امرئ القيس ، ولم يصل الينا من شعره شىء ولا بد أن يكون قد وقف على الاطلال وبكى الديار كما يريد أن يقف ويبكى امرؤ القيس ثم لا بد أن تكون له قصائد افتتحها بالوقوف والبكاء وصرف يقول فيها بعد الى غير ذلك من الاغراض بهذا كان يدين الشعراء كامرئ القيس للقدماء ألا ترى الى عنترة يفتتح معلقته فيقول :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

فنحن اذا انحزنا فى دراسة الشعر الجاهلى الى القرنين السابقين للاسلام نفعل ذلك مضطرين لانقطاع الرواية الصحيحة عما قبل هذا التاريخ لان ماروى منه أقرب الى الوضع والاختلاق ، ومن العبث التعرض له بكلام فقد أفرط القصاصون فى التوغل بالشعر الى القديم حتى أوصلوه الى العرب البائدة فنسبوا اليها منه الكثير فيما ذكروه عنها من أساطير ناسين أنهم رووه بلغة مضر قبيل الاسلام ومحال أن تتحد ولغة عاد ، على أن ذلك ليس بالغريب عليهم وقد نسبوا الشعر الى آدم وأولاده والى الجن والملائكة والشياطين .

تلك نبعة الشعر عامة ولدى العرب خاصة وإنا لسائقو القول بعدها على الشعر الجاهلى من حيث طبيعته وفنونه ، تسجيله كثيرا من أحوال العرب ، تأثيره ومنزلة رجاله ، طبقات الشعراء ومنزلة اصحاب المعلقات فيهم مع السبب فى تسميتها بهذا الاسم ثم منزلة المعلقات نفسها منه إن شاء الله .

٢ — طبيعة الشعر الجاهلى وفنونه

ترانا مضطرين قبل التكلم فى طبيعة الشعر الجاهلى أن نسوق القول عاما فى طبائع الشعر القديم كلة حتى يمكن أن نرجع الشعر المذكور الى الطبيعة التى تلائمه والتى اليها ينتمى

فان من الشعر ماهو قصصى ينصرف الى القصص فيذكر الحروب والابطال ولكنه لايقتصر فى ذكرها عليهما بل يمزج بهما مناداة الآلهة واستيحاءها فهو شعر اجتماعى تفنى فيه شخصية الشاعر الى حيث لايراها الانسان ثم هو فى لفظه طويل بالغ فى الطول تصل القصيدة الواحدة منه الآلاف من الابيات دون أن تتقيد بلون واحد من الوزن والتقفية ، وكثيرا ماتعتمد فى انشادها على الموسيقى . وهذا النوع من الشعر يلائم كل أمة فى فطرتها الاولى اذا تضامت برابطة اجتماعية تصل بين أفرادها فى الدفاع والاغارة وأخرى دينية توحد بينهم فى العقيدة ولكنها تعدد من آلهتهم ومعبوداتهم كأمة اليونان فى القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد .

ومنه ماهو تمثيلى يعتمد على الحوار المصحوب بالحركة والعمل الصادر عن كثير من الاشخاص دون اشتمال على أمثال سأل وأجاب أو قال وقلت فترى المتحاورين فيه يتحدثون وهم يغدون ويروحون ويأتون من الاعمال مايستلزمه هذا الحوار معتمدين فى أقوالهم على ماهنالك من غناء وموسيقى ورقص وهو فى موضوعه أوسع دائرة من القصصى لانه يتناول القصة وغيرها ثم القصة فيه غير قاصرة على الابطال والحروب ولا مقيدة باستيحاء الآلهة وخطابها ولذلك لم يظهر فى أمة قديمة إلا نتيجة لرقى عقلى كبير وحياة ديمقراطية صحيحة كأمة اليونان منذ القرن الخامس قبل الميلاد .

ومنه ماهو غنائى يخرج عن الدائرة الاجتماعية للقصص والتمثيل الى شخصية الفرد أولا وقبل كل شىء فلا يزال يصور نفسية الشخص وما يتصل بها من وجدان وميل ولا يفتأ صاحبه يغنى نفسه بحبه وبغضه ولذته وألمه . وهو نتيجة لرقى الشخصية الفردية وتحررها من قيود الاجتماع المسيطرة من غير رأى ومن شوائب العقيدة المشركة للآلهة فى كل عمل . ولذلك كان الرحلة الوسطى لاخويه فى الامم التى وجدت بها المراحل الثلاث كأمة اليونان أيضا فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد .

فطبائع الشعر ثلاثة ونحن اذا عرضنا لاسبابها ومميزاتها نطبقها على العرب فى جاهليتها لا نجدها تهيأت إلا للشعر الغنائى فحسب . نعم كان لها ذكر قوى لابطالها ووصف معرف بحروبها ولكنه لم ينهض أن يسمى شعرا قصصيا لانها قالته غير مطيلة فيه دون أن تنسى شخصيتها أو تستوحى آلهتها . كما كان لها حوار يظهر فى القصيدة بين عاشقين أو متخاصمين ولكنه لم ينهض كذلك أن يسمى تمثيليا ، لان الحوار فيه على ضيق دائرته وقلته لم يتجرد من أمثال قلت وقال ولم يصحب من المتحاورين بالحركة والعمل كما لم يعتمد على ما اعتمد عليه التمثيلى من رقص وموسيقى وغناء .

واذن الشعر العربى غناء كله ولكنه فى جاهليته عن طبيعة وبيئة وفى إسلامه عن محاكاة وتقليد وليس يضير العرب من ذلك ضير لان شاعرية الامة لاتقاس بأنواع الشعر بل بالدرجة التى بلغت إنتاجا وقدرة فى النوع الذى تهيأت له والامة العربية قد بلغت من الشعر الغنائى مبلغا لم تشاركها فيه أمة أخرى فقد قالته فى كل عصورها فجاء فى عمومه معبرا عن الجمال الفنى المطلق الذى تنشده الانسانية جميعا ليكون صلة بين شعوبها وأجناسها على اختلاف بيئها وعصورها كما جاء فى خصوصه مرءاة تمثل أصدق تمثيل شخصية الشعراء

وحالة البيئات وحياة الافراد والجماعات حتى انه ليعد من أصدق مصادر التاريخ على اختلاف الامكنة والعصور وحسبه أن أدى رسالته بقوة فى هاتين الناحيتين وليس بعد ذلك مثال .

هذه طبيعة الشعر الجاهلى فاذا قلنا طبيعته وفنونه فانما نقصد الى الفنون الداخلة فى هذه الطبيعة الفنائية من نسيب وفخر ورثاء ومدح وهجاء ووصف لا الى أى نوع من النوعين الآخرين وهما القصصى والتمثيلى على أن له أبوابا أخرى ولكن هذه الابواب الستة أهم فنونه إذ هى الاصيلة فيه واليها يكاد يرجع غيرها من وعيد وانذار، استعطاف واعتذار، اقتضاء واستنجاز، ملامة وعتاب الى غير هذه مما يعده الادباء . أما الحكم والامثال فلم تك بالكثيرة فى الشعر الجاهلى كما لم تك تأتي وحدها قصدا بل عفوا وفى ثنايا غيرها . وهذه كلمة عن كل فن من الفنون الستة متبوعة بنماذج له .

١ — النسيب

ويرادفه التشبيب والتغزل وكلها راجعة الى المرأة فى وصفها حسناً ومعنى واظهار الميل اليها والكلف بحبها مع مايتبع هذا من التألم لفراقها والتشوق الى للقائها الى غير ذلك مما يدل على شدة الصبابة وفرط الوجد وتصورها فى كل ذي صلة بها أو مشابهة لها من الديار والآثار والنبات والحيوان والرياح والبروق . وقد شغل النسيب فى الجاهلية مكانا عليا من الشعر ولا يبعد أن يكون أقدم فنونه لقدم علاقة الرجل بالمرأة ولان حياة البداوة تجعل مشاركتها له مجسمة بارزة ، هذا الى ما للحل والارتحال الدائبين بتقلب الفصول والايام من خلق أسباب الهوي والهيام لما فيهما من قرب وفراق وتواصل وبعاد . ولذا كثر فى العرب العشاق المتيمون أمثال المرقش الاكبر من بكر وائل

واسمه عوف بن سعد وعبد الله بن العجلان من نهد من قضاعة ومالك بن الصمصامة من بنى جعدة ومسافر بن أبي عمرو من قريش ثم عروة بن حزام العذرى وقد أدرك الاسلام فهؤلاء ولهم أمثال وأشباه عاشوا للمرأة وفى المرأة ماتوا وخلص لها شعرهم كما خلص لها حبهم ثم لم تعدم من غيرهم الكثير من الاشعار ان لم يكن قصدا وبالذات ففى مطالع القصائد وكثيرا ما كانت تراجح الغرض منها أو تزيد ويحسن أن نختص تلك المطالع باسم التشبيب وهذا فرق ما بينه وبين التغزل والنسيب أما الفرق بين هذين فعلى تعذر حده يمكن أن يقال إن التغزل ما عمد فيه الشاعر الى وصف المرأة مدفوعا الى ذلك بعقيدة أو مسوقا فيه بصناعة والنسيب ما توجه فيه الى ذكر الصبابة والوجد وألم الهوى والفراق صادرا فى ذلك عن وجدان وشعور لا يكونان الا فى المحبين المغرمين ومن هنا كانت كلمة النسيب أنسب الكلمات الثلاث لاطلاقها على هذا الفن من الشعر كما اخترناه .

نماذجه

قال المرقش الاكبر وهو من الشعراء المتيمين

سرى ليلا خيال من سليمى فأرقنى وأصحابي هجود
فبت أدير أمرى كل حال واذكر أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفى لنار يشب لها بذى الارطى وقود(١)
حواليها مهاً بيض التراقى وآرام وغزلان رقود
نواعم لا تعالج بؤس عيش أوانس لا تروح ولا ترود

(١) ذو الارطى مكان والارطى شجر

يرحن معا بطاء المشى بدءا عليهن المجاسد والبرود (١)
سكن ببلدة وسكنت أخرى وقطعت المواثق والعهود
فما بالى أفى ويخان عهدى وما بالى أصاد ولاأصيد

وقال فى ابنة عمه أسماء وهى التى مات بحبها

أغالبك القلب اللجوج صبابة وشوقا إلى اسماء أم إنت غالبه
يهيم ولا يعيا بأسماء قلبه كذالك الهوى أمراره وعواقبه (٢)
أيلحى امرؤ فى حب أسماء قد نأى بغم من الواشين وازور جانبه
وأسماء هم النفس إن كنت عالما وبادى أحاديث الفؤاد وغائبه
إذا ذكرتها النفس ظلت كأننى يزعزعنى قفقاف ورد وصالبه (٣)

وقال عروة بن حزام العذرى وهو من المخضرمين من قصيدة طويلة فى ابنة عمه عفراء

على كبدى من حب عفراء قرحة وعيناى من وجد بها تكفان
فعفراء أرجى الناس عندى مودة وعفراء عنى المعرض المتواني
فياليت كل اثنين بينهما هوى من الناس والانعام يلتقيان
فيقضى حبيب من حبيب لبانة ويرعاها ربى فلا يريان
هوى ناقتى خلفى وقدامي الهوى واني واياها لمختلفان
يقول لى الاصحاب إذ يعذلونني أشوق عراقى وأنت يمانى
تحملت من عفراء مالیس لى به ولا للجبال الراسيات يدان

---

(١) جمع مجسد كمبرد الثوب يلى الجسد وجمع برد كقفل كساء مخطط أو كسية يلتحف بها واحدتها بهاء (٢) جمع مرضد الحلو (٣) الورد بكسر الواو الحمى أو قفقافها ذو الرعدة منها يذهب ويجيء فاذا استمر فهو الصالب

كان قطاة علقت بجناحها على كبدى من شدة الخفقان
جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفيانى(١)
فقالا نعم نشفى من الداء كله وقاما مع العواد يبتدران
فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة الا وقد سقياني
وما شفيا الداء الذى بي كله ولا ذخرا نصحا ولا ألوانى(٢)
فقالا شفاك الله والله مالنا بما ضمنت منك الضلوع يدان

٢ — الفخر

هو تمدح الشاعر بنفسه وقومه وذكر مآثرهم ومفاخرهم وأكثر ما تناول الفخر تناول الشجاعة والنجدة والبأس والقوة وإجارة الجار ومنع الحريم واكرام الضيف وإيواء الطارقين وهى خير ما كانت تقدس العرب من صفات وأكثر ما كان يظهر فى حياتهم ويتطلبه عيشهم .وأنسب ما كان يقع الفخر كان يقع من السادة الاشراف والابطال الفرسان ومن جرى مجراهم من الصعاليك المغيرين فمن السادة زهير بن جناب الكلبي من قضاعة والحصين بن الحمام من قيس والمهلهل بن ربيعة وعمرو بن كلثوم من تغلب والأفوه الاودى من مذحج وعبد يغوث من كهلان وعامر بن الطفيل من قيس وأبو قيس بن الأسلت من الأوس وقيس بن عاصم من تميم وقد أدرك الاسلام ومن الفرسان علقمة الفحل من تميم وعنترة العبسى وحاتم الطائى وسلامة بن جندل التميمى وقيس بن الخطيم الاوسى والاغلب العجلى وعمرو بن معديكرب الزبيدى ثم أبو محجن الثقفى وزيد الخيل الطائى وقد أدركا الاسلام ومن الصعاليك المغاوير عروة بن الورد العبسى وتأبط شرا القيسى والسليك بن السلكة التميمى

---

(١) الاول رباح بن عجلة والثانى الابلق السعدى (٢) ألى قصر من باب نصر

نماذجه

قال عمرو بن الاطنابة أحد بنى الخزرج يفتخر بقومه وهو ممن ملك الحجاز فى الجاهلية(١)

اني من القوم الذين اذا انتدوا بدءوا بحق الله ثم النائل (٢)
المانعين من الخنا جاراتهم والحاشدين على طعام النازل (٣)
والخالطين فقيرهم بغنيهم والباذلين عطاءهم للسائل
والضاربين الكبش يبرق بيضه ضرب المهجهج عن حياض الآبل(٤)
والقاتلين لدى الوغى أقرانهم إن المنية من وراء الوائل (٥)
والقائلين فلا يعاب كلامهم يوم المقامة بالقضاء الفاصل
خزر عيونهم إلى أعدائهم يمشون مشى الأسد تحت الوابل
ليسوا بأنكاس ولا ميل إذا ما الحرب شبت أشعلوا بالشاعل(٦)

وقال حصين بن الحمام المرى فى الصبر

ولما رأينا الصبر قد حيل دونه وأن كان يوم ذا كواكب مظلما
صبرنا وكان الصبر منا سجية بأسيافنا يقطعن كفا ومعصما
نفلق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما
ولما رأيت الود ليس بنافعى عمدت إلى الامر الذي كان أحزما
فلست بمبتاع الحياة بذلة ولا مرتق من خشية الموت سلما

وقال حاتم الطائى فى الكرم وما اتصف به من مكارم الاخلاق

فانى لاآلو بمالى صنيعة فأوله زاد وآخره ذخر

---

(١) الاطنابة المظلة وهى أمه (٢) انتدوا اجتمعوا (٣) الخنا الفحش (٤) الزاجر الابل بقول هج هج (٥) الوائل طالب النجاة (٦) جمع نكس كقرد الضعيف ، جمع أميل الاعزل

يفك به العاني ويؤكل طيبا وما إن تعريه القداح ولا الخمر(١)
ولا أظلم ابن العم ان كان اخوتي شهودا وقد أودى باخوته الدهر
غنينا زمانا بالتصعلك والغنى وكلا سقاناه بكأسيهما العصر(٢)
فما زادنا بأوا على ذى قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر(٣)
وماضر جارا يا ابنة العم فاعلمى يجاورني ألا يكون له ستر
بعيني عن جارات قومي غفلة وفى السمع مني عن حديثهم وقر

وقال عتيبة بن بجير المازني من بنى الحارث بن كعب فى ايواء الطارق

ومستنبح بات الصدى يستتيهه إلى كل صوت فهو فى الرحل جانح(٤)
فقلت لاهلى مابغام مطية وسار أضافته الكلاب النوابح (٥)
فقالوا غريب طارق طوحت به متون الفيافى والخطوب الطوارح
فقمت ولم أجثم مكانى ولم تقم مع النفس علات البخيل الفواضح
وناديت شبلا فاستجاب وربما ضممنا قري عشر لمن لانصافح
فقام أبو ضيف كريم كأنه وقد جد من فرط الفكاهة مازح
إلى جذم مال قد نهكنا سوامه وأعراضنا فيه بواق صحائح
جعلناه دون الذم حتى كأنه اذا عد مال المكثرين المنائح (٦)
لنا حمد أرباب المئين ولا يرى الى بيتنا مال مع الليل رائح

ومن أحسن ماقيل فى الصعلكة قول عروة بن الورد العبسى المعروف بعروة الصعاليك

لحا الله صعلوكا اذا جن ليله مصافى المشاش آلفا كل مجزر(٧)

---

(١) العانى الاسير (٢) غنينا أقمنا (٣) البأو التكبر (٤) الجانح المائل
(٥) البغام صوت فى حنين (٦) المنائح جمع منيحة وهى الناقة أو الشاة تدفع إلى الجار ينتفع بلبنها مادام بها لبن (٧) المشاش بضم الميم رأس العظم ومصافيه آخذه كله

يعد الغنى من نفسه كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
ينـــام ثقيلا ثم يصبح قاعدا يحت الحصى عن جنبه المتعفر(١)
يعين نساء الحى ما يستعنه فيضحى طليحا كالبعير المحسر(٢)
ولكن صعلوكا صفيحة وجهه كضوء سراج القابس المتنور
مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر(٣)
وان بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المتنظر
فذلك إن يلق المنية يلقهـــا حميدا وإن يستغن يوما فأجدر
يريح على الليل أضـــياف ماجد كريم ومـالى سارحا مال مقتر

٣ — الرثاء

هو بكاء الميت وتعديد محاسنه وصفاته فى ثوب من التفجع والحسرة والتلهف والاسى مع استعظام المصيبة واستشعار الجزع إن كان الميت من ذوى الرياسة والاقدار وقد كان من عادة القدماء فيه أن يضربوا الامثال بمن سلف من الانبياء والملوك والامراء والعظماء وبما هلك من الوعول المعتصمة بقنن الجبال والاسود الخادرة فى ثنايا الغياض وحمر الوحش الضاربة فى مجاهل القفار ثم بالنسور والحيات ذات البأس القوى والعمر المديد وأن يخلوه من التشبيب الذى اعتادوا أن يفتتحوا به القصيد فى سائر الفنون ماعداه وهو فى الجاهلية ذو شأن كبير لما كان بها من حروب ذات بال لا تفتأ تغتال الشجعان وتلتهم الابطال وقد شاركت النساء فيه الرجال أكثر مما شاركنهم فى سائر الانواع لأنهن أشجى قلوبا وأشد جزعا لما ركب فى طباعهن من رقة العاطفة وضعف الاحتمال ولعل أول من أكثر فيه وأطال المهلهل فى رثائه لكليب أخيه ومن مشهورات المراثى

(١) يحت يفرك (٢) الطليح المعي والمحسر ساقط الوبر من الاعياء
(٣) المنيح القدح لا نصيب له

من النساء قصائد الخنساء فى أخويها معاوية وصخر ولا سيما الاخير على أن هذا الباب قد عم وفاض حتى لم يختص به شعراء كما هى الحال فى غيره من الابواب لان الموت شامل والمصيبة على تحريك النفوس بالبكاء ذات قوة واقتدار .

نماذجه

من أقدم المراثي وأجودها ما كان من مهلهل فى أخيه كليب ومن أدلها على استفظاع المصيبة قوله

كليب لاخير فى الدنيا ومن فيها ... اذ أنت خليتها فيمن يخليها

كليب أى فتى عز ومكرمة ... تحت السفاسف إذ يعلوك سافيها (١)

نعى النعاة كليبا لى فقلت لهم ... مالت بنا الارض أوزالت رواسيها

الحزم والعزم كانا من صنيعته ... ما كل آلائه ياقوم أحصيها (٢)

القائد الخيل تردى فى أعنتها ... زهوا إذا الخيل لجت فى تهاديها (٣)

من خيل تغلب ما تلقى أسنتها ... الا وقد عضبوها من أعاديها

يهزهزون من الخطى مدمجة ... كمتا أنابيبها زرقا خواليها

تروى الرماح بأيدينا فنوردها ... بيضا ونصدرها حمرا اعاليها

ليت السماء على من تحتها وقعت ... وانشقت الارض فانجابت بمن فيها

لاأصلح الله منا من يصالحكم ... ما لاحت الشمس فى اعلى مجاريها

ومن جيد الرثاء مراثي الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمي فى أخويها معاوية وصخر فمن مراثيها فى معاوية قولها

---

(١) السفاسف جمع سفسف وهو التراب تسفيه الرياح (٢) جمع ألو كندلو العطية
(٣) تردى كترمى ترجم الارض بحوافرها

أريقى من دموعك واستفيقى وصبرا ان أطقت وان تطيقى
وقولى إن خير بنى سليم وفارسها بصحراء العقيق
ألا هل ترجعن لنا الليالى وأيام لنا بلوي الشقيق
وإذ نحن الفوارس كل يوم إذا حضروا وفتيان الحقوق
وإذ فينا معاوية بن عمرو على أدماء كالجمل الفنيق (٢)
فبكيه قد أودى حميدا أمين الرأى محمود الصديق
فلا والله لاتسلاك نفسى لفاحشة أتيت ولا عقوق
ولكنى رأيت الصبر خيرا من النعلين والرأس الخليق (٣)

ومنها فى صخر قولها

أعينى جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندي
ألا تبكيان الجرىء الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا
طويل النجاد رفيع العما دساد عشيرته أمردا
إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد اليه يدا
فنال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا
يكلفه القوم ماعا لهم وان كان أصغرهم مولدا
ترى الحمد يهوى إلى بيته يري أفضل الكسب أن يحمدا
وإن ذكر المجد ألفيته تأزر بالمجد ثم ارتدى

وقال أبو ذؤيب الهذلى وتتابع له بنون قيل ثمانية وقيل عشرة وقيل هلكوا بالطاعون والصواب التتابع

---

(١) كمت حمر فى قنوء (٢) الفنيق الضخم (٣) كان من عادة النساء حلق الرأس وتعليق النعلين حزنا .

أمن المنون وريبها تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت اميمة ما لجسمك شاحبا ... منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع(١)
ام ما لجسمك لا يلائم مضجعا ... إلا أقض عليك ذاك المضجع
فأجبتها اما لجسمى انه ... اودى بنى من البلاد فودعوا
اودى بنى فأعقبوني حسرة ... بعد الرقاد وعبرة ماتقلع
سبقوا هوىّ واعنقوا لهواهم ... فتخرموا ولكل جنب مصرع
فغبرت بعدهم بعيش ناصب ... وإخال أنى لاحق مستتبع(٢)
ولقد صرحت بأن ادافع عنهم ... وإذا المنية أقبلت لاتدفع
وإذا المنية انشبت اظفارها ... الفيت كل تميمة لاتنفع
فالعين بعدهم كان جفونها ... سملت بشوك فهى عور تدمع(٣)
وتجلدى للشامتين اريهم ... أني لريب الدهر لااتضعضع
حتى كأنى للحوادث مروة ... بصفا المشقر كل يوم تقرع(٤)
لابد من تلف مقيم فانتظر ... أبأرض قومك أم بأخرى المضجع
ولقد أرى أن البكاء سفاهة ... ولسوف يولع بالبكا من يفجع
وليأتين عليك يوم مرة ... يبكى عليك مقنعا لاتسمع
والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع
كم من جميعى الشمل ملتئمى الهوى ... كانوا بعيش ناعم فتصدعوا

---

(١) اهملت نفسك ولبست المبتذل من الثياب (٢) غبرت بقيت ومضيت فهو من الاضداد (٣) سملت فقئت (٤) المروة حجر أبيض براق والصفا واحدته صفاة وهى الحجر الصلد الضخم والمشقر الجبل تضرب حجارته إلى الشقرة .

فلئن بهم فجع الزمان وريبه إنى بأهل مودتي لمفجع

وهى طويلة ولكنه بعد هذا أخذ يضرب الامثال بما لم يترك الموت من أنواع الوحوش ذات القوة والاعتصام

٤ — المدح

وطريقه التنويه بفضائل الممدوح والتعريف بصفاته اشادة بذكره ورفعا لشأنه سيان فى ذلك وصفه على سبيل العموم والاجمال بأمهات الفضائل كالشجاعة والعفة والعدل والعقل أو تخصيصه على سبيل التفصيل بما هو به أشبه وله أميز كالاقدام والرأى فى القائد والكرم والمساواة فى السيد إلى غير ذلك من الصفات النفسية اللائقة التي ليس للمادح أن يتجاوزها إلى غيرها من الجسمية كالجمال أو العرضية كالغنى إلا معها وقاصدا . على هذا كان مدح العرب فى جاهليتهم ثم إن ما ركب فى نفوسهم من عزة وأنفة وإباء وكرامة جعلهم يضيقون دائرة المدح فلم يتعدوا فيه لذاتهم وذوي الرياسة من عشائرهم غير أن السؤال بالمدائح وطلب الاستجداد بالشعر لم يلبث أن ظهر فيهم آخر عهدهم فكان منهم من تكسب بمدحه فى ترفع كزهير أو تنزل كالاعشى أو بين بين كالنابغة ولكن قلة هؤلاء ولو أنهم شهروا وبعد صيتهم لم تخرج بالمدح فى جملته عما رسمنا

نماذجه

قال المسيب بن علس وهو من معاصرى طرفة يمدح مالك بن سلمة الخير القشيرى

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم ولذى الرقيبة مالك فضل

كفاه مخلفة ومتلفة وعطاؤه متخرق جزل (١)

بهب الجياد كأنها عسب جرد أطار نسيلها البقل (٢)

(١) متخرق نافذ وجزل عظيم (٢) جمع عسيب الجريدة لاخوص فيها ونسيل الخيل شعرها والبقل يطيره من الشبع به

والضامرات كأنها بقر تقرو دكادك بينها الرمل (١)
والدهم كالعبدان آزرها وسط الأشاء مكمم جعل (٢)
وإذا الشمال حدت قلائصها رتكا فليس لمالك مثل (٣)
للضيف والجار الغريب ولا طفل الترنك كأنه رأل (٤)
ولقد تناولني بنائله فأصابني من ماله سجل (٥)
متبعج التيار ذو حدب مغرورب تياره يعلو (٦)
فلأشكرن فضول نعمته حتى أموت وفضله فضل

ولزهير فى هرم بن سنان المرى وبيته مدائح سارت بها الامثال ومن ذلك قوله

إذا السنة الحمراء بالناس أجحفت ونال كرام المال فى الجحرة الاكل (٧)
رأيت ذوى الحاجات عند بيوتهم قطينا لهم حتى إذا نبت البقل (٨)
هنالك إن يستخبلوا المال يخبلوا وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا (٩)
وفيهم مقامات حسان وجوهها وأندية ينتابها النول والفعل
وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل
وإن قام فيهم قائم قال قاعد رشدت فلا غرم عليك ولا خذل
على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل

---

(١) تقرو تتبع والدكادك المرتفعات جمع دكدك (٢) النخل الصغير واحدته أشاءة والمكمم ذو الاكمام والجعل الكثير (٣) الرتك تقارب الخطا (٤) الرأل ولد النعام والترنك المترك (٥) السجل الدلو العظيمة (٦) متبعج التيار منفرجه والحدب الارتفاع ومغرورب منهاد لاينقطع سيله (٧) الجحرة كنبقة السنة الشديدة المجدبة (٨) جمع قاطن المقيم (٩) إن يستقرضوه يقرضوه، إن ييسروا يلعبوا الميسر

فما كان من خير أتوه فانما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا فى منابتها النخل (١)

وقال الأعشى يمدح الأسود بن المنذر أخا النعمان من قصيدة طويلة والخطاب للناقة

لا تشكى الى وانتجعى الاسـ ـود أهل الندى وأهل الفعال
فرع نبع يهتز فى غصن المجـ ـد غزير الندى شديد المحال (٢)
عنده البر والتقى وأسا الصدـ ـع وحمل للمعضلات الثقال
وصلات الارحام قد علم النا ـس وفك الاسرى من الاغلال
وهوان النفس الكريمة للذكـ ـر إذا ما التقت صدور العوالى
أريحى صلت يظل له القو ـم ركودا قيامهم للهلال
ان يعاقب يكن غراما وان يعـ ـط جزيلا فانه لا يبالى

ومن مدائح النابغة للنعمان وفيها اعتذار واستعطاف

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب
فبت كأن العائدات فرشن لى هراسا به يعلى فراشى ويقشب (٣)
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عنى وشاية لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ولكننى كنت امرأ لى جانب من الارض فيه مستراد ومذهب
ملوك واخوان إذا ما أتيتهم أحكم فى أموالهم وأقرب
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا
فلا تتركنى بالوعيد كأننى إلى الناس مطلى به القار أجرب

---

(١) الخطى شجر الرماح ووشيجه عرقه (٢) الغصن الثني (٣) الهراس الشوك ويقشب يخلط

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
فانك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
ولست بمستبق أخا لاتلمه على شعث أى الرجال المهذب
فان أك مظلوما فعبد ظلمته وان تك ذا عتبى فمثلك يعتب

٥ — الهجاء

ويكون على عكس المديح بتجريد المهجو من الفضائل والصفات المرغبة كما يكون بوصمه بالرذائل الشائنة والاوصاف المنفرة وأشده ماوقع بالموازنة والتفضيل . ولم يتجاوز هجاء الجاهليين القبائل إلى الافراد ولا العف من القول إلى الاذاع إلا حيث صار الشعر آلة للتكسب عند بعض الشعراء وأصبح من الحتم عليهم أن يهجوا ليخيفوا أو ينتقموا وأن يخرجوا فى هجوهم من القبائل إلى الاشخاص منتهكين بأفواههم سياج العفة والاعتدال ولعل أول من عرف بذلك الاعشى ثم جاء بعده الحطيئة من المخضرمين فأفرط وزاد حتى انه لم يعف عن هجو نفسه بما لايرضى أن يهجوه به انسان وكذلك فعل مع أمه وأبيه غير أن ذلك لم يدنس العصر الجاهلى كله لقصره كما تقدم على آحاد

نماذجه

قال بشر بن أبي خازم الاسدى يهجو أوس بن حارثة بن لأم الطائى

ألا أبلغ بنى لأم رسولا فبئس محل راحلة الغريب
إذا عقدوا لجار أخفروه كما غر الرشاء من الذنوب(١)
وما أوس ولو سودتموه بمخشى العرام ولا أريب(٢)
أتوعدنى بقومك يابن سعدى وذلك من ملمات الخطوب

---

(١) الرشاء حبل الذنوب وهى الدلو (٢) العرام كغراب الحدة والشدة والكثرة

وحولى من بنى أسد عديد ... مبن بين شبان وشيب (١)
هم ضربوا قوانس خيل حجر ... بجنب الرده فى يوم عصيب (٢)
وهم تركوا عتيبة فى مكر ... بطعنة لا ألف ولا هيوب (٣)
وهم تركوا غداة بنى نمير ... شريحا بين ضبعان وذيب (٤)
وهم وردوا الجفار على تميم ... بكل سميدع بطل نجيب (٥)
وأفلت حاجب تحت العوالى ... على مثل المولعة الطلوب (٦)
وحى بن كلاب قد شجرنا ... بأرماح كاشطان القليب (٧)
إذا ماشمرت حرب سمونا ... سمو البزل فى العطن الرحيب (٨)

— وعلى هذا العز الوطيد لبنى أسد يقول عبيد بن الأبرص الأسدى لامرىء القيس بعد قتل قومه لأبيه يهجوه فى شعر بالغ من الاستخفاف به وتهديده

ياذا المخوفنا بقتـ ... ـل أبيه إذلالا وحينا
أزعمت أنك قـد قتلـ ... ـت سراتنا كذبا ومينا
لوما على حجر بن أم ... م قطام تبكى لاعلينا
إنا إذا عض الثقا ... ف برأس صعدتنا لوينا (٩)

---

(١) المبن المقيم (٢) القوانس أعالى الرءوس وحجر والد امرئ القيس (٣) عتيبة بن الحارث طعنه ذؤاب الاسدى والالف البطىء والهيوب الرعديد (٤) شريح يظهر أنه من سادات نمير (٥) الجفار ماء لتميم (٦) حاجب بن زرارة والمولعة العقاب والطلوب الشديدة الطلب للصيد (٧) شجرنا دفعنا وفرقنا والقليب البئر والاشطان حبالها واحدها شطن (٨) جمع بازل وهو من بلغ التاسعة من الابل (٩) الثقاف خشبة تقوم بها الرماح والصعدة القناة

نحمى حقيقتنا وبع ... ض القوم يسقط بين بينا
هلا سألت جموع كن ... دة إذ توالوا أين أينا
أيام نضرب هامهم ... ببواتر حتى انحنينا
وجموع غسان الملو ... ك أتيتهم وقد انطوينا (١)
لحقا أياطلهن قد ... عالجن أسفارا وأينا (٢)
ولقد صلقن هوازنا ... بنو اهل حتى ارتوينا (٣)
نعليهم تحت الضبا ... ب المشرفى إذا اعتزينا
نحن الالى فاجمع جمو ... عك ثم وجههم الينا
وأعلم بأن جيادنا ... آلين لا يقضين دينا
ولقد أبحنا ما حمـ ... ـيت ولا مبيح لما حمينا
هذا ولو قدرت عليـ ... ـيك رماح قومى ما انتهينا
حتي تنوشك نوشة ... عاداتهن إذا انتوينا

وقال الخطيئة وهو من المخضرمين يهجو بنى بهدلة ورئيسهم الزبرقان بن بدر ويمدح بني عمهم آل شماس وسيدهم بغيض بن عامر على سبيل المناظرة وهو من أوجع الهجاء وبخاصة بين الاقربين وكان نزيلا عند الاولين فأهملوا أمره فتحول إلى هؤلاء فبالغوا فى اكرامه قال :

ألا أبلغ بنى عوف بن كعب ... فهل حى على خلق سواء
عطاردها وبهدلة بن عوف ... فهل يشفى صدوركم الشفاء
ألم أك نائيا فدعوتمونى ... فجاء بى المواعـد والدعاء
ألم أك جاركم فتركتمونى ... لكلبى فى دياركم عواء

(١) الضميران للخيل (٢) الأياطل الخواصر (٣) الصلق الضرب على الهامة

وآنيت العشاء إلى سهيل أو الشعرى فطال بي الاناء(١)

ألم أك جاركم ويكون بيني وبينكم المودة والاخاء

ولما أن أتيتكم أبيتم وشر مواطن الحسب الاباء

ولما أن أتيتهم حبوني وفيكم كان لو شئتم حباء

ولما أن مدحت القوم قلتم هجوت وهل يحل لى الهجاء

فلم أشتم لكم حسبا ولكن حمدت بحيث يستمع الحداء

فلا وأبيك ماظلمت قريع بأن يبنوا المكارم حيث شاءوا

ولا وأبيك ماظلمت قريع ولا عنفوا بذاك ولا أساءوا

فأبقوا الا أبالـكم عليهم فان ملامة المولى شقاء

وإن أباهم الادني أبوكم وإن صدورهم منكم براء

٦ — الوصف

معناه الكشف والاظهار وأبلغه ماقلب السمع بصرا والشعر إلا أقله راجع اليه فهو باب فى عمومه واسع النطاق ولكنه قصر فى عرف الادباء على غيرما اندرج من اوصاف تحت غيره من أبواب . وقد طرقه العرب قديما فى كل ما شملته باديتهم وتناولته حاجاتهم من ارض وسماء واحداث جو والوان نبات وحيوان يدب على الارض وطير يصعد فى الهواء ولكنهم تفاضلوا فيه كما تفاضل الناس فى سائر الاشياء فمنهم من أجاد فى كثير من الاوصاف وان غلبت عليه الاجادة فى بعضها كامرئ القيس ومنهم من قصرت إجادته على وصف شئ دون غيره كابى داود الايادى وطفيل الغنوى والنابغة الجعدي فى نعت الخيل وكطرفة بن العبد وأوس بن حجر فى نعت الابل وان كان اكثر العرب

---

(١) آنيت اخرت

يجيد وصفها وكالشماخ فى وصف الحمر الوحشية والقسى وكالاعشى فى وصف الخمر وهكذا ومن ثم عرف فريق من الشعراء باسم الشعراء الوصافين كهؤلاء .

نماذجه

قال التمر بن تولب يصف أبدال الشيب

لعمرى لقد أنكرت نفسى ورابنى مع الشيب أبدالى التى أتبدل (١)
فضول أراها فى أديمى بعد ما يكون كفاف اللحم أوهو أفضل (٢)
كأن محطا فى يدى حارثية صناع علت منى به الجلد من عل (٣)
وقولى إذا ما غاب يوما بعيرهم يلاقونه حتى يؤب المنخل (٤)
وأضحى ولم يذهب بعيرى غربة وأشوى الذى أشوى ولا أتحلل (٥)
وظلعى ولم أكسر وأن طعينتى تلف بنيها فى البجاد وأعزل (٦)
ودهرى فيكفينى القليل وأننى أؤوب إذا ما أبت لا أتعلل
وكنت صفى النفس لا شىء دونه فقد صرت من إفصا حبيبى أذهل
بطىء عن الداعى فلست بآخذ اليه سلاحى مثل ما كنت أفعل
تدارك ما قبل الشباب وبعده حوادث أيام تضر وأغفل
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء إذا رام القيام ويحمل (٧)
يود الفتى طول السلامة والبقا فكيف ترى طول السلامة يفعل
دعاني الغوانى عمهن وخلتنى لى اسم فلا أدعى به وهو أول

---

(١) جمع بدل وهى التغيرات (٢) كفاف اللحم أى مثله و هو أى اللحم (٣) حط الجلد صقله بالمحط وهو حديدة لذلك (٤) يقصد المنخل الشاعر ويضرب المثل بعدم أوبته (٥) أضحى أبقى مقيما فى الضحاء (٦) الظلع العرج والبجاد اللحاف (٧) ينوء يقوم فى ثقل

وقال المرقش الأكبر يصف فرسا

غدونا بضاف كالعسيب مجلل طويناه حتى عاد وهو ملوح(١)
أسيل نبيل ليس فيه معابة كميت كلون الصرف أرجل أقرح (٢)
على مثله تأتي الندى مخايلا وتعبر سراً أى أمريك أفلح
وتسبق مطروداً وتلحق طاردا وتخرج من غم المضيق وتجرح
تراه بشكات المدجج بعدما يقطع أقران المغيرة يجمح (٣)
يجم جموم الحسى جاش مضيقه ويردي به من تحت غيل وأبطح (٤)
شهدت به فى غارة مسبطرة يطاعن أولاها سواء ويطرح (٥)

وقال الشماخ بن ضرار يصف قوسا

تخيرها القواس من فرع ضالة لها شذب من دونها وحزائز (٦)
نمت فى مكان كنها فاستوت به وما دونها من غيلها متلاحز (٧)
فما زال ينجو كل رطب ويابس وينغل حتى نالها وهو بارز (٨)
فأنحي عليها ذات حد غرابها عدو لأوساط العضاه مشاوز (٩)

---

(١) الضافى الطويل الذيل والمجلل ذو الجل والعسيب الجريدة لا خوص فيها وملوح مغبر من الشمس (٢) الاسيل الطويل والنبيل الغليظ والصرف الخمر خالصة غير ممزوجة والارجل المحجل والاقرح الاغر (٣) الشكات جمع شكة وهى السلاح والمدجج المستور فى سلاحه والمغيرة الخيل (٤) الحسى البئر ويجم يفيض وجاش فار ويردى يسير الرديان والغيل الماء الجاري والأبطح المسيل فيه دقاق الحصا (٥) المسبطرة الممتدة (٦) الضالة السدرة البرية والشذب العيدان والحزائز قطع الشجر (٧) من غيلها فى منبتها ومتلاحز متضايق داخل

(٨) ينجو يقطع وينغل يدخل (٩) ذات الحد الفاس وغرابها حدها والعضاه جمع عضاهة شجر والمشاوز المشاكس

فلما اطمأنت فى يديه رأى غنى ... أحاط به وازور عمن يجاوز ( )
فأمسكها عامين يطلب درأها ... وينظر منها ما الذي هو غامز (٢)
أقام الثقاف والطريدة متنها ... كما أخرجت ضغن الشموس المهامز (٣)
فوافى بها أهل المواسم فانبرى ... لها بيع يغلى بها السوم رائز (٤)
فقال له بايع أخاك ولا يكن ... لك اليوم عن ربح من البيع لاهز (٥)
فظل يناجى نفسه وأميرها ... أيأبى الذى يعطى بها أو يجاوز (٦)
فلما شراها فاضت العين عبرة ... وفى الصدر حزاز من الوجد حامز (٧)
فذاق فأعطته من اللين جانبا ... كفى ولها أن يغرق السهم حاجز (٨)
إذا أنبض الرامون فيها ترنمت ... ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز (٩)
هتوف إذا ما خالط الظبي سهمها ... وإن ريع منها أسلمتة النوافز (١٠)
كأن عليها زعفراناً تميره ... خوازن عطار يمان كوانز (١١)
إذا سقط الانداء صينت وأشعرت ... حبيراً ولم تدرج عليها المعاوز (١٢)

وقال النابغة الجعدى يصف ذئبا افترس جؤذراً

فأمسى عليه أطلس اللون شاحيا ... شحيحاً تسميه النباطى نهسراً (١٣)
طويل القرا عارى الاشاجع مارد ... كشق العصا فوه إذا ما تضورا (١٤)

---

(١) ازور مال ويجاوز يجمع ويضم (٢) درأها دفعها (٣) الثقاف خشبة التقويم والطريدة قطعة التعديل والمهامز جمع مهماز (٤) الرائز المجرب الخبير (٥) لاهز صاد (٦) يجاوز يقبل (٧) شراها باعها وحامز ممض محرق (٨) ولها أن يغرق السهم حاجز أي لها حاجز من أن يغرق السهم (٩) أنبض فى القوس أصاتها أو حرك وترها لترن (١٠) النوافز القوائم (١١) تميره تسيله

(١٢) أشعرت ألبست والمعاوز جمع معوز وهو الثوب الخلق (١٣) شاحيا فاتحا فاه (١٤) القرا الظهر والاشاجع السيقان

فبات يذكيه بغير حديدة أخو قنص يمس ويصبح مقفرا (١)
إذا ما رأى منه كراعا تحركت أصاب مكان القلب منه وفرفرا (٢)

هذا وباب الوصف حافل لا تفيه النماذج حقه مهما طال إيرادها فلنتركه على هذا القدر على أن نستكمل بعض نقصه من المعلقات بعد ولذا جعلنا المختار منه هنا من غير الأنماط الواردة فيها إلا ما كان من وصف الفرس ومع ذلك نحا المرقش فيه غير ما نحا عنترة وامرؤ القيس

هذا وقد حدثنا عن الاختيار من المعلقات لأن لها دراسة بعد

٣ - تسجيلة كثيرا من أحوال العرب

لم تدع فنون الشعر الجاهلي ما ذكرنا منها ومالم نذكر خلقا من أخلاق العرب في ذاك العهد إلا صورته ولا وجدانا من وجداناتهم إلا أظهرته كما لم تدع في بيئتهم كائنا محسادون وصف ولا في عرفهم شيئا من عادة أو عقيدة دون ذكر وحسبنا ما تقدم من نماذج في الخلق والوجدان والوصف أما الاوابد وهي ما جرى عليها العرف العربي عن عقيدة أو عادة فانا عاطفون عليها هنا بذكر الشواهد الشعرية على الكثير منها دون أن نفصل الكلام في العادة عن العقيدة لأن معظم العادات كان منشؤه الاعتقاد حقاً كان أم باطلا

١ - قال رجل في الاستقسام بالأزلام وكان ذو الخلصة من الاصنام التي يستقسم بأزلامها بين مكة والمدينة فقتل أبوه فاراد الطلب بثأره فذهب اليه فاستقسم عنده فخرج السهم بنهيه فقال

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلي وكان شيخك المقبورا لم تنه عن قتل العداة زورا

---

(١) يذكيه يذبحه ومقفرا جائعاً (٢) الكراع بضم الكاف الساق أو مستدقه وفرفر كسر وقطع وحرك ونفض

٢ — وقال ابن مقبل يفتخر بالايسار والنحر لها

يا بنت آل هشام هل علمت إذا أمسى المراضيع فى أعناقها خضع
أنى أتم أيسارى بذى أود من فرع شوحط ضاح ليطه فرع
يحدو قتائله بيض غطارفة شم الانوف مغاليق الضحى ضلع
أولو الوفاء ولو أدوا قداحهم ولايزال لهم من لحمها قنع

٣ — وقال جريبة بن الاشيم الفقعسى لابنه يوصيه بالعقر على قبره إذا مات

إذا مت فادفنى بحراء ما بها سوى الاصرخين أو يفوز راكب
فان أنت لم تعقر على مطيتى فلا قام فى مال لك الدهر حالب
ولاتدفنى فى صوى وادفنى بديمومة تنزو عليها الجنادب

٤ — وجريبة هذا هو الذى يقول لابنه أيضا فى البلية

ياسعد إما أهلكن فانى أوصيك إن أخا الوصاة الاقرب
لا أعرفن أباك يحشر خلفكم تعباً يخر على اليدين وينكب
فاحمل أباك على بعير صالح وتق الخطيئة انه هو أصوب
ولعل لى مما جمعت مطية فى الحشر أركبها إذا قيل اركبوا

٥ — ومن أشعارهم فى ضرب الثور لتشرب البقر قول نهشل

كذاك الثور يضرب بالهراوى إذا ما عافت البقر الظماء

ومثل ذلك أشعارهم فى كى السليم ليبرأ الاجرب قال النابغة

لكلفتنى ذنب امرىء وتركته كذى العر يكوي غيره وهو راتع

وقد استخدم الشعراء هذين المعنيين كثيراً فى الرجل يعاقب وغيره الجانى قال الشاعر

فلا تجعلوها كالبقير وفحلها يكسر ضربا وهو للورد طائع
وما ذنبه إن لم ترد بقراته وقد فاجأتها عند ذاك الشرائع

وقال آخر

فألزمتنى ذنباً وغيرى جره حنانيك لاتكو الصحيح بأجربا

٦ — وفى مذهبهم فى تعليق الحلى والجلاجل على اللديغ ويسمونه سليما تفاؤلا ليبرأ يقول شاعرهم

كأني سليم ناله كلم حية تري حوله حلى النساء موضعاً

ويقول آخر

فبت معنى بالهموم كأننى سليم نفى عنه الرقاد الجلاجل

٧ — وقالت امرأة فى زوال حلأ الشفة بوضع المنخل على رأس المصاب بها

ألا حلا فى شفة مشقوقه فقد قضى منخلنا حقوقه

٨ — ويروون أن جنية أرادت صبى قوم بسوء فلم تقدر عليه فلامها قومها فقالت تعتذر اليهم

كان عليه نفزه ثعالب وهرره والحيض حيض السمره

وهذا على بعده من الحقيقة يوضح عقيدة بعض العرب فى أن تعليق سن الثعلب والهرة وصمغ السمرة على الصبى يقيه شر الجنة وكذلك كانوا يعتقدون فى تعليق كعب الارنب وأشياء أخرى

٩ — وقال طرفة فى تبديل الشمس أسنان الاثغار بخير منها إذا قذفت فى عينه

بادن نجلو إذا ما ابتسمت عن شتيت كالحى الرمل غر

بدلته الشمس من منبته برداً أبيض مصقول الاشر

١٠ — ومن عقائدهم التى يكاد يجمع عليها الهامة وهى طائر يزعمون خروجه من رأس كل ميت فاذا كان قتيلا لاتزال تقول اسقونى اسقونى فاذا صدية حتى يؤخذ بثأره وفى ذلك يقول بعضهم يوصى ابنه

ولا ترقون لى هامة فوق مرقب فان زقاء الهام للمرء عائب

تنادى ألا اسقونى وكل صدى به وتلك التى تبيض منها الذوائب

وقال آخر يهجو ويعير

وان أخاكم قد علمت مكانه بسفح قبا تسفى عليه الاعاصر
له هامة تدعو إذا الليل جنها بنى عامر هل للهلالى ثائر

١١ — وقال بعضهم فى رثاء شريف تتخطاه المقاليت « اللائى لا تعيش لهن أولاد »

بنفسى الذي تمشى المقاليت حوله يطأن له كشحا هضيما مهشما

١٢ — وقريب من هذا ما كانوا يعتقدونه من أن دم الشريف يشفى من الكلب قال عبد الله بن الزبير الاسدى

من خير بيت علمناه وأكرمه كانت دماؤهم تشفى من الكلب

١٣ — ومن أشعارهم فى كى أليتى العاشق ليذهب عشقه ويشفى منه قول الشاعر

شكوت إلى رفيقى اشتياقى فجاءانى وقد جمعا دواء
وجاءا بالطبيب ليكوياني ولا أبغى عدمتكما اكتواء
ولو أتيا بسلمى حين جاءا لعافتني من السقم الشفاء

١٤ — أما شق الرجل برقع المرأة وشق المرأة رداءه ليدوم حبهما فما ورد فيه قول سحيم عبد بنى الحسحاس

إذا شق برد شق بالبرد برقع دواليك حتى كلنا غير لابس
نروم بهذا الفعل بقيا على الهوى وإلف الهوى يغرى بهذى الوساوس

١٥ — ومن أشعارهم فى إذهاب خدر الرجل بذكر محبوب قول الشاعر

صب محب إذا ما رجله خدرت نادى كبيشة حتى يذهب الخدر

١٦ — ومما يقرب من هذا أن الرجل منهم كان إذا خلجت عينه توقع رؤية من يحب غائبا أو بعيداً وفى ذلك يقول بعضهم

إذا اختلجت عيني تيقنت أنني أراك وان كان المزار بعيداً

١٧ وأشعارهم فى النيران المتنوعة التى اعتادوا ايقادها لما تقدم كثيرة متنوعة أيضاً نذكر منها هنا الشواهد على نارين غريبتين احداهما نار البقر أو الاستمطار وذلك أنهم كانوا إذا حبس عنهم الحيا عمدوا إلى حزم من السلع والعشر وهما نوعان من النبات شديدا الالتهاب فعقدوهما فى أذناب البقر وأصعدوها فى جبل وعر ثم أوقدوا فيها وساقوها قبل المغرب قال أعرابى وقد فعلوا ذلك فلم يمطروا ثم أمطرهم الله بعد

شفعنا ببيقور الى هاطل الحيا فلم يغن عنا ذاك بل زادنا جدبا

فعدنا الى رب الحيـا فأجارنا وصير جدب الارض من عنده خصبا

والثانية نار السعالى والسعالى أخبث الغيلان وهى نار يقولون انها كانت تقع للمتغرب المتقفر فيأنس ويهتدى وفى ذلك يقول عبيد بن أيوب :

ولله در الغول أى رفيقة لصاحب ذو خائف متقفر

أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت حوالى نيرانا تبوخ وتزهر

١٨ — وعلى ذكر الغيلان وهى السحرة من الجن والشياطين كما كانت العرب تعتقد تقول إنها كانت تعتقد ايضا أن الجن والشياطين تساكنهم فى بلادهم ولذلك كانوا يعوذون بهم يؤيد ذلك قوله تعالى « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » وقد سجل الشعر ذلك بافاضة قال بعضهم :

قد بت ضيفا لعظيم الوادي المانعى من سطوة الاعادى راحلتى فى جاره وزادى

وقال آخر :

أعوذ من شر البلاد البيد بسيد معظم مجيد

اصبح ياوى بلوى زرود ذى عزة وكاهل شديد

وقال غيرهما

ياجن أجزاء اللوى من عالج عاذ بكم ساري الظلام الداجي
لاترهقوه بغوى هائج

وقال رابع

هيا صاحب الشجراء هل أنت مانعي فاني ضيف نازل بفنائكا
وانك للجنان فى الأرض سيد ومثلك آوى فى الظلام الصعالكا

واستعاذ رجل ومعه ولد بعظيم واد فأكل ابنه الاسد فقال

قد استعذنا بعظيم الوادى من شر مافيه من الاعادى فلم يجرنا من هز برعاد

١٩ — ولقد تمادى العرب فى هذه العقيدة حتى ادعى بعضهم مخالطة الجن ومكالمتهم واستضافتهم بل والتزوج منهم وتناسلهم ولهم فى ذلك أشعار وأقاصيص فهذا جذع بن سنان يقول

أتوا نارى فقلت منون أنتم فقالوا الجن قلت عموا صباحا

وسمير بن الحارث الضبي يقول

أتوا نارى فقلت منون قالوا سراة الجن قلت عموا ظلاما

وهذا عمرو بن يربوع يزعم أنه تزوج من غول وولد له بنون عرفوا ببنى السعلاة وفى ذلك يقول شاعر يهجوهم

ياقبح الله بنى السعلاة عمرو بن يربوع شرار النات ليسوا بأبطال ولا اكيات

وتأبط شرا يدعى أنه قابل غولا اعترضته فقتلها فقال

لهان على جهينة ما ألاقى من الروعات يوم رحى بطان
لقيت الغول تسرى فى ظلام بسهب كالعباءة صحصحان

فقلت لها كلانا نضو أرض أخو سفر فخلى لى مكاني

فشدت شدة نحوي فأهوى لها كفى بمصقول يمان

٢٠ — ومن هذه الناحية من الاتصال ما كان يزعمه العرب وشعراؤهم من أن لكل شاعر شيطانا يلقى اليه بالشعر وكانوا يعتقدون بوجه عام أن للشعر شيطانين الهوبر مجيد والهوجل مفسد روى أن رجلا من تميم أتى الفرزدق فقال إني قد قلت شعرا فانظره قال أنشدني فقال

ومنهم عمر المحمود نائله كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحك الفرزدق ثم قال يا ابن أخى ان للشعر شيطانين يدعى أحدهما الهوبر والآخر الهوجل فمن انفرد به الهوبر جاد شعره وصح كلامه ومن انفرد به الهوجل فسد شعره وانهما قد اجتمعا لك فى هذا البيت فكان معك الهوبر فى أوله فأجدت وخالطك الهوجل فى آخره فأفسدت ومن هنا كانوا يسمون الشعر رقى الشياطين قال جرير

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطانى من الجن راقيا

ولهذه العقيدة كانوا يسمون لكل مجيد من الشعراء شيطانا خاصا وكانوا يتحاكمون إلى الجنة إذا ظفروا بهم فى تفضيل الشعراء بعضهم على بعض ولهم فى ذلك حكايات وأقاصيص نسوق بعضها على سبيل التمثيل

١ — ذكر مطرف الكناني عن ابن دأب عن رجل من أهل زرود عن أبيه عن جده أنه خرج على فحل له فى طلب لقاح ضالة حتى دفع إلى خيمة بفنائها شيخ كبير فدارت بينهما مكالمة انتهت بطلبه من هذا الشيخ أن ينشده من أشعاره فأنشده

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فلما فرغ قال له لو أن امرأ القيس ينشر لردعك عن هذا الكلام فقال له أنا والله منحته ما أعجبك منه قال فقلت له ما اسمك قال لافظ بن لاحظ قلت اسمان منكران قال أجل فعلمت أنه من الجن فقلت له من أشعر العرب فأنشأ يقول

ذهب ابن حجر بالقريض وقوله ولقد أجاد فما يعاب زياد

لله هاذر إذ يجود بقوله ان ابن ماهر بعدها لجواد

قلت من هاذر بن ماهر قال صاحب زياد الذبياني وهو أشعر الجن وأضنهم بشعره فالعجب منه كيف سلسل لأخي ذبيان به ولقد علم بنية لى قصيدة له له من فيه إلى أذنها ثم صرخ بها اخرجى فدى لك من ولدت حواء فخرجت فأنشدتنى .

نأت بسعاد عنك نوى شطون فبانت والفؤاد بها حزين

حتى أتت على قوله منها

فألفيت الامانة لم تخنها كذلك كان نوح لايخون

فقال والله لو كان رأى قوم نوح فيه كرأى هاذر ما أصابهم الغرق قال الرجل فحفظت البيتين ثم نهض بي الفحل فعدت إلى لقاحى

ب — وحدث مظعون بن مظعون الاعرابى عن أبيه أنه خرج على بعيره حتى إذا كان فى سفح جبل رأى على قنته رجلا عليه أطمار بالية ونجمت بينهما محاورة انتهت بقوله للرجل أتروى من أشعار العرب شيئا قال نعم أروى وأقول قولا فائقا مبرزا قال فقلت أرنى من قولك ما أحببت فأنشأ يقول

طاف الخيال علينا ليلة الوادى لآل أسماء لم يلمم لميعاد

حتى فرغ منها فقلت لهذا الشعر أشهر فى معد بن عدنان من ولد الفرس الاباق فى الدهم العراب هذا لعبيد بن الابرص الاسدي فقال ومن عبيد لولا هبيد قلت ومن هبيد فانشأ يقول

أنا ابن الصلادم أدعى الهبيـ ـدحبوت القوافى قرمى أسد
عبيـدا حبوت بمأثوره وأنطقت بشرا على غير كد
ولاقى بمدرك رهط الـكميـ ـت ملاذا عزيزا ومجدا وجد
منحناهم الشعر عن قدرة فهل تشكر اليوم هـذا معد

فقلت أما عن نفسك فقد أخبرتني فأخبرنى عن مدرك فقال هو مدرك بن واغم صاحب الكميت وهو ابن عمى

ج — وذكر شيخ من أهل البصرة أنه خرج فى ليلة مقمرة على جمل له الى الصحراء فأبصر شبحا كهيئة انسان على ظهر ظليم قد خطمه وهو يقول

هل يبلغنيهم إلى الصباح هقل كأن رأسه جماح

فعلم أنه جنى قال فقلت له من أشعر الناس قال الذى يقول

وما ذرفت عيناك الا لتضربي بسهميك فى أعشـار قلب مقتل

فعلمت أنه يريد امرأ القيس قلت ثم من قال الذى يقول

وتبرد برد رداء العرو س فى الصيف رقرقت فيه العبيرا
وتسخن ليلة لا يستطيـ ـع نباحا بهـا الـكلب إلا هريرا

فعلمت أنه يريد الاعشى قلت ثم من قال الذي يقول

تطرد القر بحر صادق وعكيك الصيف ان جاء بقر

فعلمت أنه يريد طرفة وانقطع الحديث

د — وحدث الاعشى أنه خرج يريد قيس بن معديكرب بحضرموت فضل حتى وقعت عينه على خباء ببابه شيخ فانتسب له وأفهمه أنه يقصد قيسا فقال له حياك الله أظنك امتدحته بشعر قال نعم قال فأنشدنيه فأنشدته

حلت سمية غدوة أجمالها غضبا عليك فما تقول بدا لها

obeikandl.com

فقال حسبك هذا البيت أهذه القصيدة لك قلت نعم قال من سمية قلت لا أعرفها انما هو اسم القى فى روعى فنادى ياسمية اخرجى أنشدى عمك قصيدتي التى مدحت بها قيس بن معديكرب فاندفعت تنشد حتى أتت على آخرها لم تخرم فيها حرفا ثم قال هل قلت شيئا غير ذلك قلت نعم كان بينى وبين ابن عم لى يقال له يزيد بن مسهر ما يكون بين بنى العم فهجاني فهجوته فأنخنته قال ماذا قلت فيه قلت قلت

ودع هريرة ان الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

فقال حسبك من هريرة قلت لا أعرفها وسبيلها سبيل التى قبلها فنادي ياهريرة أنشدى عمك قصيدتى التى هجوت بها يزيد بن مسهر فانشدتها كسا بقتها فسقط فى يدى وتحيرت وتغشتنى رعدة فلما رأى ما نزل بى قال ليفرخ روعك يا أبا بصير أنا هاجسك مسحل بن أثاثة الذي التى على لسانك الشعر قال فسكنت نفسى ثم دلنى على الطريق وأراني سمت مقصدى .وفى مسحل هذا يقول الاعشى

وما كنت شاحوذا ولكن حسبتنى اذا مسحل يسدى لى القول أعلق

شريكان فيما بيننا من هوادة صفيان انسى وجن موفق

يقول فلا أعيا بقول يقوله كفاني لاعى ولا هو أخرق

ويقول فيه وفى جهنام شيطان فرو بن قطن

دعوت خليلى مسحلا ودعوا له جهنام جدعا للهجين المذمم

وهذا مذهب شائع قال حسان بن ثابت

ولى صاحب من بنى الشيصبا ن فطورا أقول وطورا هوه

وقال أبو النجم

انى وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وقال آخر .

اني ـ ان كنت صغير السن وكان فى العين نبو عنى

فان شيطانى أمير الجن يذهب بى فى الشعر كل فن

والرأى فى هذا وأمثاله أن الجن مع وجودها لا يقع منها للانسى ما تدعى العرب وانما هذه تخيلات صوروها ليرفعوا من قيمة الشعر وأنه كالسحر لا ينبغي صدوره إلا عن الجن الذين هم فى اعتقادهم مصدر العبقرية فى كل شىء ولذلك يقولون عن كل معجب عبقرى نسبة الى عبقر وما عبقر عندهم إلا واد للجن وليس هذا الخيال قاصرا على العرب وحدهم اذ تشاركهم فيه الأمم القديمة جميعا بل كان معظمها يعبد هذه القوى الخفية من خيرة طمعا فى خيرها وشريرة خوفا من شرها . أما تلك الاقاصيص فهى أساطير حاكوها كما حاكوا مضارب الأمثال الفرضية وكما وضعت سائر الأمم أساطيرها وليس عليهم فى ذلك مايعاب ففى الناحية الادبية ينبغى أن يطلق من عنان الخيال ماشاء الخيال

٤ ـ تأثيره و منزلة رجاله

لقد كان للشعر فى العرب تأثير ما أبلغه من تأثير ولرجاله بينهم مكانة ما أرفعها من مكانة ذلك انهم كانوا ذوى فطر سليمة ونفوس حساسة وكان الشعر طبيعة فيهم يمتزج منهم بالدم واللحم لا يزالون يقولونه ويستوحون سماءه فينقادون لخياله ويخضعون لاحكامه . وكان للشعراء عليهم نفوذ وسلطان لا يقل شأنا عن نفوذ الصحف السيارة الآن على الافراد والجماعات فكانت كل قبيلة تغتبط بكثرة شعرائها وتتخير من بينهم اقواهم حجة وابلغهم قولا ليكون المشيد بمحاسنها ومفاخرها الذاب عن احسابها واعراضها . أثر فيها اثر

أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى لتهنئتها فصنعت الاطعمة ومدت الموائد وتباشر الرجال والولدان واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الاعراس . ولشدة ما كان للشعر من تأثير جاوز فيه المنطق وتعدى المعقول نسبة العرب إلى الجن وسمو الشعراء بالساحرين قال رؤبة

لقد خشيت أن تكون ساحرا راوية مرا ومرا شاعرا

وكان ذلك عاما ففى كل باب من أبوابه كان يبلغ الشاعر ما لا يبلغ غيره إذا نسب رقق القلوب القاسية واستنزل العصم العاصية وإذا وصف أراك ما لم تر كأنه المرئى وقد يكون تمثيلا لا يستند الا الى الخيال والتصوير واذ رثي أثار الشجون وحرك مكامن الذكريات فاذا ما فخر بالحماسه والاستبسال حبب الى الجبناء القتال وأرخص الموت على مغلى الحياة قال معاوية بن أبى سفيان اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم فلقد رأيتنى ليلة الهرير بصفين وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الارض وأنا أريد الهرب من شده البلوى فما حملنى على الاقامة إلا أبيات عمرو بن الاطنابة

أبت لى همتى وأبى بلائى وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقحامى على المكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمى بعد عن عرض صحيح

وابن الاطنابة كما تقدم من شعراء الخزرج الجاهليين

أما شعراء المديح والهجاء فقد كانوا شفاء أقوامهم وسمومأعدائهم لا يزالون لقبائلهم يحمون سلطانها ويرفعون بنيانها كما يذبون عن حياضها ويدافعون عن وردها وأمر احتماء القبائل بشعرائها كثير الحوادث مروى الأشعار ولكن

الذى نريده أقوى حجة فى الاستدلال على تأثير الشعر أن الشاعر كان إذا تعرض لقبيلة بهجاء وفيها من الشعراء من يخشى لسانه ويتقى هجوه لم يك أمام قبيلته فى دفع ماتحذر الا حمله الى من هجاهم متبرئة منه ومسلمة فيه وهذا ماحدث حين هجا عبد الله بن الزبعرى السهمى بنى قصى فقد رفعه السهميون الى عتبة بن ربيعة خوفا من هجاء الزبير بن عبد المطلب وكان شاعرا شديد العارضة قذع الهجاء فلما وصل عبد الله اليهم أطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه فقال عبد الله غير مستنكر مافعلت عشيرته

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتي وان صالحت اخوانها لألومها

فان قصيا أهل مجد وعزة وأهل فعال لايرام قديمها

وكان الزبير غائبا بالطائف فلما وصل الى مكة وعلم الخبر قال

فلولا نحن لم يلبس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا

ثيابهم سمال أو طمار بها ودك كما دسم الحميت

ولكنا خلقنا إذ خلقنا لنا الحبرات والمسك الفتيت

وكان الشاعر اذا رضى لنفسه أن يتجاوز بمدحه وهجائه قبيلته وأعداءها تطلعت اليه القبائل الاخرى فأخذت تقربه رجاء مدحه فيها وهجائه لمناظريها كما كان من الحطيئة فقد استضافه الزبرقان بن بدر من بنى بهدلة وقصرت امرأته فى اكرامه وهو غائب فأخذه بغيض بن عامر من آل لأى بن شماس وبالغ فى اكرامه فكان خير ماقاله من شعر هجاء ومدحا فى هذين الحيين وقد دلف شىء منه فى النماذج

على أن التحاسد على الشعراء لم يك قاصرا على القبائل بل تعداها الى الملوك فهذا النعمان بن المنذر ملك الحيرة تبصر كيف كان اجتذابه للنابغة

يمدحه ويمدح آل بيته وكيف حسده عليه الفساسنة ملوك الشام فأعظموا فى حبائه حتى مدحهم ثم كيف غضب النعمان عليه لذلك غضبا سارت باعتذارات النابغة عنه الامثال ومع ذلك لم ينل من النعمان رضا لأن الشركة فى هذا الباب بين متناظرين ليست مما يطاق

ومن غريب تأثير الشعر أن الشاعر كان اذا وصم سيدا لم يجد من يغسل عنه ذلك الا هذا الشاعر نفسه ذكروا أن بشر بن أبي خازم الأسدى لما حمل على هجاء أوس بن حارثه بن لأم الطائى فهجاه بما تقدم بعضه ووقع بشر أسيرا عند بنى نبهان من طيء اشتراه أوس بمائتى بعير ولما أخذه قال له هجوتنى ظالما فاختر بين قطع لسانك وحبسك فى سرب حتى تموت وبين قطع يديك ورجليك وتخلية سبيلك هكذا ذكر الرواة ورأيى أن سياق القول يقتضى قرن التخلية بقطع اللسان والحبس بتقطيع اليدين والرجلين وأن هذا تحريف قالوا فسمعت أمه وهى سعدى بنت حصن من سادات طيء فقالت لأوس يابنى لقد مات أبوك فرجوتك لقومك عامة فأصبحت والله لأرجوك لنفسك خاصة أزعمت أنك قاطع رجلا هجاك فمن يمحو اذن ماقال فيك قال فما أصنع به قالت تكسوه حلتك وتحمله على راحلتك وتأمر له بمائة ناقة حتى يغسل مديحه هجاءه ففعل فامتدحه فأكثر قال أبو محمد الاخفش مدح بشر أوسا وأهل بيته مكان كل قصيدة هجاهم بها قصيدة وكان هجاهم بخمس فمدحهم بخمس

ومن مدائحه فيه قوله من قصيدة والخطاب للناقة

الى أوس بن حارثة بن لأم ... لربك فاعملى ان لم تخافى

فما صدع بخبة أو بشرج ... على زلق زوالق ذى كهاف

نزل اللقوة الشفواء عنها مخالبها كأطراف الأشافى
بأحرز موئلا من جار أوس اذا ماضيم جيران الضعاف
وما ليث بشر فى غريف تفنيه البعوض على النطاف
مغب مايزال على أكيل يناغى الشمس ليس بذى عطاف
بأبأس سورة بالقرن منه اذا دعيت نزال لدى النقاف
وما أوس بن حارثة بن لأم بغمر فى الامور ولا مضاف

ومن ذلك ما كان من حسان بن ثابت فى بنى عبد المدان هجاهم ببسطة أجسامهم وكانوا يفخرون بها فقال

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال واحلام العصافير

فلم يزالوا يخجلون منها حتى محا ذلك عنهم بقوله

وقد كنا نقول اذا التقينا لذى جسم يعد وذي بيان
كأنك أيها المعطى لسانا وجسما من بنى عبد المدان

وأغرب مما تقدم فى تأثيره أنه كان اذا تعرض لنابه أنزله من ذروته فاذا أعان خاملا رفعه من وهدته فممن قضى على مكانتهم الربيع بن زياد وكان من خواص النعمان لم يزل ينادمه ويؤاكله حتى سمع فيه وهما يأكلان أرجوزة لبيد التى يقول فيها « مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه » وفيها إقذاع فرفع يده عن الطعام فقال الربيع أبيت اللعن كذب الغلام وأراد الاعتذار فقال النعمان

قد قيل ما قيل ان صدقا وان كذبا فما اعتذارك من قول اذا قيلا

ثم حجبه بعد ذلك فسقطت منزلته : وممن رفعهم بعد خمول المحلق الكلابى وكان مطلقا كثير البنات قد رغب عن مصاهرته الأزواج فأشارت عليه امرأته أن يضيف الأعشى وهو قادم إلى الموسم فيكرمه بكل ما يملك ليقول فيه قولا تتزوج

به بناته وتحسن حاله ففعل وعرف الاعشى ذلك فلما أصبح بعكاظ أنشد قافيته المشهورة التي يقول فيها فيما نحن بصدده

نفى الذم عن رهط المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقي تفهق
ترى القوم فيها شارعين وبينهم مع القوم ولدان من النسل دردق
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق
رضيعي لبان ثدي أم تحالفا بأسحم داج عوض لا نتفرق
ترى الجود يجري ظاهرا فوق وجهه كما زان متن الهندواني رونق

فما أتم القصيدة الا والناس يتسللون إلى المحلق يهنئونه ويخطبون بناته فلم تمس واحدة منهن الا في عصمة رجل بين الفضل على ابيها .

بل لقد بلغ من تأثير الشعر أنه كان بيت واحد يجعل مفخرة القبيلة مسبة ومسبتها مفخره كان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم لأبيهم لما روى من أنه لقب به لتعجيله قري الاضياف فلما هجاهم النجاشي بأبيات منها

وما سمي العجلان الا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

صاروا يستحيون منه وكان بنوا أنف الناقة يخجلون من هذا الاسم ويتجاوزونه في نسبهم حتى قال الحطيئة

قوم هم الانف والاذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فصاروا يتطاولون به ويمدون فيه أصواتهم بجهارة .

ثل بلغ من تأثيره أيضا أنه كان كما قيل

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويقضي بما يقضي به وهو ظالم

وقديما نفر عامر بن الطفيل بني علقمة بن علاثة مع تسوية الحكم وهو

هرم بن قطبة بينهما بقول الاعشى

علقم ماأنت الى عامر بالناقض الاوتار والواتر

إن تسد الحوص فلم تعدهم وعامر ساد بنى عامر

الى آخر ماقال

من ذلك كله وغيره كان الشعراء ذوى منزلة ترجى وترغب كما تخاف وترهب لا يزالون يستخدمون للوعيد والاغراء ويستعان بهم فى الاستعطاف والاستشفاع ففى الجاهلية أغرى أوس بن حجر النعمان بن المنذر على بنى حنيفة فنكل بهم واستشفع علقمة الفحل الحارث الغسانى فى أخيه شاس وتسعين أسيرا مه من تميم فأطلقهم له جميعا وفى حياة النبى صلى الله عليه وسلم كان ما كان للمسلمين والمشركين على ألسنة الشعراء من الفريقين وأمر رسول الله فى ذلك وفى قبول الشفاعات من الشعراء ثابت معروف وما بعده فى سائر العصور كثير مشهور ولا كن لاداعى ونحن فى العصر الجاهلى أن نجاوزه الى ماخلفه من عصور فيما كان للشعر من أثر وللشعراء من مكان

٥ — طبقات الشعراء ومنزلة أصحاب المعلقات فيهم

ثم سبب تسميتها بهذا الاسم

ليس فى طبقات الشعراء من حيث عصور التاريخ خلاف فالكل مجمعون على أنهم أربع طبقات جاهليون لم يدركوا الاسلام كامرىء القيس أو أدركوه ولم يقولوا فيه شعرا كلبيد ومخضرمون أدركوه وقالوا فيه شعرا كحسان والحطيئة واسلاميون وهم من لم يدركوا الجاهلية ومنهايتهم آخر العصر الاموى

كالفرزدق وجرير والاخطل ثم مولدون وهم الذين اختلطوا بشعوب الامم الاخرى من الفرس والروم والمصريين وغيرهم منذ الدولة العباسية إلى ماشاء الله

ولكن الخلاف كبير فى تقسيمهم من حيث الشعر والشهرة فى كل عصر من هذه العصور والذى يهمنا الآن العصر الجاهلى وأقصد القول فيه ماكان لابى عبيدة معمر بن المثنى فقد جعله ثلاث طبقات وضع فى أولاها امرأ القيس وزهيرا والنابغة وفى ثانيتها الاعشى ولبيدا وطرفة وفى ثالثتها عنترة وعمرو بن كلثوم وعروة بن الورد ودريد بن الصمة والمرقش الاكبر وعبيدا الطائى وكأنه سكت عن طبقة رابعة يوضع فيها الحارث بن حلزة وسائر الشعراء وبذلك تفهم طبقة كل واحد من رجال المعلقات . ولعل أطول تقسيم للطبقات مافعل ابن سلام فقد أوصلها الى عشر غير شعراء المراثى وشعراء القرى العربية الخمس وهى المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين وغير شعراء اليهود فى المدينة وأكنافها ووضع فى كل طبقة أربعة شعراء على مافى اتحاد العدد من تحكم لايتفق وطبيعة التقسيم فكان امرؤ القيس وزهير فى الاولى ومعهما النابغة والاعشى وكان لبيد فى الثالثة ومعه نابغة بنى جعدة وأبو ذؤيب الهذلى والشماخ بن ضرار وكان طرفة فى الرابعة ومعه عبيد بن الابرص وعلقمة بن عبدة الفحل وعدى بن زيد وكان عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة فى السادسة ومعهم سويد بن أبى كاهل وليس فيما لم نذكر من باقى الطبقات وهى الثانية والخامسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة أحد من رجال المعلقات

فابن سلام على طول تقسيمه يتفق مع أبى عبيدة فى أن المقدمين على جميع الشعراء أربعة هم امرؤ القيس وزهير والنابغة والاعشى وهذا الذى يكاد ينعقد

عليه الاجماع غير أن الخلاف فى أيهم المقدم بالغ أشده فعلماء البصرة يقدمون امرأ القيس وأهل الكوفة يقدمون الاعشى والحجازيون يقدمون زهيرا والنابغة والذى يجدر بالباحث اتباعه عدم الاعتداد بهذا الخلاف لأنه لفظى أكثر منه فى الصميم إذ لكل وجهة نظر تخالف وجهة الآخرين. فمن احتج لامرىء القيس نظر الى سبقه فى ابتداع أشياء استحسنها العرب واتبعه فيها الشعراء كاستيقاف الاصحاب وبكاء الاطلال والاكثار من التغزل وتشبيه النساء بالبيض والظباء والخيل بالعقبان والوحوش وأنها قيد الاوابد وغير هذا. ومن احتج لزهير نظر الى أنه أحكمهم شعرا وأبعدهم من السخف وأجمعهم الكثير من المعانى فى قليل من الالفاظ وأنه كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتبع حوشيه وأنه مع بلوغه فى المدح لم يمدح أحدا بغير ماهو فيه. ومن احتج للنابغة قال إنه أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتا وكأن شعره منثور لا تكلف فيه. أما أصحاب الاعشى فقالوا إنه أكثرهم عروضا وأذهبهم فى الشعر فنونا وأكثرهم طويلة جيدة ومدحا وهجاء ونظرا وصفة هكذا قال ابن سلام وذكر أنه شهد خلفا وقد قيل له من أشعر الناس فقال ما ينتهى هذا الى واحد يجتمع عليه كما لا يجتمع على أشجع الناس وأخطب الناس وأجمل الناس

والذى عليه أكثر الرواة فى المعلقات أنها كما جمعها حماد وأوردها الزوزني سبع وهى بالترتيب قفا نبك لامرئ القيس ، لخولة أطلال لطرفة ، أمن أم أوفى لزهير ، عفت الديار للبيد ، ألاهبى لعمرو بن كلثوم ، هل غادر الشعراء لعنترة ، آذنتنا ببينها للحارث بن حلزة وقد جعلها صاحب الجمهرة ثمانيا باسقاط ابن حلزة وزيادة النابغة فالاعشى بعد زهير ومعلقة الابل «عوجوا فحيوا لنعم

دمنة الدار » والمعلقة الثانى « ما بكاء الكبير بالأطلال » وبعدهم لبيد فعمرو فطرفة فعنتره . أما التبريزى فجعلها عشرا بزيادة ثلاث على السبع اثنتين للنابغة والأعشى كما نقل صاحب الجمهرة ولكنهما « بدار مية بالعلياء فالسند » للنابغة ، « ودع هريرة ان الركب مرتحل » للاعشى ثم واحدة لعبيد هى « أقفر من أهله ملحوب » وقد ألحق بها قصيدة ثانية للاعشى هى « ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا »

وفى سبب تسميتها بالمعلقات خلاف . فابن عبد ربه يقول إنه تعليقها على الكعبة وهذا كلامه (وقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة وعلقتها بأستار الكعبة فمنه يقال مذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير والمذهبات سبع يقال لها المعلقات) وقد وافقه على ذلك ابن رشيق وابن خلدون الا أن الاخير لم يقيد التعلق بالاستار ولا الكتابة بماء الذهب ولا فى القباطى وقال بقوله صاحب الخزانة

وأبو جعفر النحاس وكان معاصرا لابن عبد ربه ينكر التعليق على الكعبة ويقول إنه لا يعرفه أحد من الرواة مستندا فى ذلك على أن حمادا حين جمعها قال هذه هى المشهورات فسميت القصائد المشهورة ولو كانت علقت على الكعبة لاعطاها هذا الاسم . وقد أخذ المستشرقون بهذا الرأى على زعم أنه لم يوجد للتعليق أثر ولا ذكر حين تهدمت الكعبة وجددت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى زعم أن العرب لا تدنس الكعبة بتعليق أمثال شعر امرىء القيس عليها ولكن هذين الزعمين ليسا بالدليلين القاطعين فان التدنيس ليس مما تراه العرب فى الشعر لما له عندهم من عظيم المكانة وهذا عبد الله بن عباس على منزلته كان يجلس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع شعر

ابن أبي ربيعة فلا ينكر عليه ذلك وأما عدم وجود أثر أو ذكر فسببه أن التعليق لم يك دائما بل فى فترات غير طويلة لا تعدو الموسم الذى قيلت فيه المعلقة وقد ذهب كل ذلك قبل الاسلام هذا على أن تعليق الاشياء الهامة على الكعبة كان من دأب العرب جاهلية واسلاما فقد علقت قريش الصحيفة التى تآمرت فيها على قطيعة بنى هاشم وعلق الرشيد عهده بالخلافة للامين والمأمون.

والذين ينكرون هذا التعليق يتلمسون لهذه التسمية سببا غيره فمنهم من يقول ان الاشعار حينما كانت تنشد بعكاظ وتستحسن يبلغ ذلك ملك الحيرة فيقول علقوا لنا هذه بمعنى أثبتوها فى خزانتنا وقد روي أنه كان عند ملوك الحيرة ديوان مكتوب جمع فيه شعر الفحول على ماروواه ابن سلام. ومنهم من يقول إن العرب كانت فى الجاهلية اذا كتبت شيئا فى الرقاع المستطيلة من الحرير أو الجلد أو نحوها نفافت عليه قرض فأرة أو تأكل عثة طوته على عود أو خشبة وعلقته فى جدار البيت أو الخيمة بعيدا عن الارض ولحرصهم على المعلقات فعلوا بها ذلك فأخذت هذا الاسم

ذاك مجمل ماقيل فى أسباب التسمية بالمعلقات وعندى أن أنجعها هو القول تعليقها على الكعبة ولكن كما قال ابن خلدون والبغدادى لأن غيره لاينهض بتلك التسمية على أية حال

٦ — منزلة المعلقات من الشعر الجاهلى

أما منزلتها من الشعر الجاهلى ففى الذروة من منازله لما امتازت به من طول القافية وتنوع الاغراض وكثرة ما ابتكر فيها من ضروب المعاني والتشبيهات على مالاسلوبها من القوة والمتانة تلاوهذه نبذة من مشتملات كل معلقة وبعض النماذج لهذه المشتملات تبين ماذكرنا من ميزات

١ — معلقة امرئ القيس

سلك امرؤ القيس فى معلقته مسلكا صور فيه حياته فأرانا كيف كان يعيش لاهيا لاعبا قد أرخى لنفسه العنان الى غير حد فلم يتصنع فى احساس ولم يتستر وراء تعبير بل ترك بيانه طوع شعوره لاسلطان لعقله على هواه ولا فكاك للسانه عما يريد وكل ذلك فى أغراض متجانسة وأساليب يأخذ بعضها بحجز بعض

بدأها بخير مطلع عرف على غير مثال سابق هو الوقوف على الأطلال للبكاء من ذكرى أحبابها الراحلين وقد تصور مرارة البين والفراق فوقف أصحابه يؤسونه وهو لايرى من شفاء فى غير سفح العبرات قال

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقال

كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل (١)

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتجمل

وان شفائى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

بهذا بدأ ثم انسل الى أن ذلك دأبه من أمى الحويرث والرباب وأخذ يصفهما ويذكر أياما له معهما ومن ذلك خاص الى يوم الدارة مع فاطمة ابنة عمه فأطال ماشاء وكان ختام محاورته معها ذلك العتاب

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وان كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

وان تك قد ساءتك منى خليقة فسلى ثيابى من ثيابك تنسل (٢)

---

(١) السمر شجر و نقف الحنظل شقه عن حبه (٢) قيل ان المراد بالثياب هنا القلب

أغرك منى أن حبك قاتلى وانك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك الا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل (١)

وكأنه عز على نفسه أن يكون الذليل أمامها فأخذ يريها عزته مع غيرها وكان من ذلك دبيبه الى ربة خدر هو ذو منزلة منها على ما أوتيت من منعة وجمال أخذ يصف آياته ويعدد محاسنه الى أن قال

تضىء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل
الى مثلها يرنو الحليم صبابة اذا ما اسبكرت بين درع ومجول (٢)
تسلت عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادي عن هواها بمنسل

وقد دفع به الدبيب الذى كان ليلا حيث يقول

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل (٣)

إلى ذكر الليل وطوله على ذوى الهموم فبلغ فى ذلك مبلغا كان آية الاعجاز اسمع اليه يقول

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل (٤)
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الاصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل (٥)
كأن الثريا علقت فى مصامها بأمراس كتان الى صم جندل (٦)

---

(١) السهمان هما المعلى بسبعة والرقيب بثلاثة وآخذهما لا يبقى من أقسام البعير شيئا لانها عشرة (٢) اسبكرت استطالت والدرع ثوب الكبيرة والمجول ثوب الجارية (٣) الاثناء الاوساط والمفصل الذى فصل بين خرزه (٤) الصلب الظهر والعجز المؤخر والكلكل الصدر (٥) مغار الفتل شديده ويذبل جبل (٦) مصامها سكونها والامراس الحبال

وهذا ليل قد أحياه ساهرا غير ليل الدبيب (والحديث ذو شجون) بقطع الاودية سماعا لعواء الذئاب مشبها نفسه بها الى أن ولى فغدا الى الصيد بفرس أنى فى وصفه بما لم يسبقه اليه سابق ولا أدركه فيه لاحق قال

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... بمنجرد قيد الاوابد هيكل

مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

درير كخذروف الوليد أمره ... تتابع كفيه بخيط موصل (١)

له أيطلا ظبي وساقا نعامة ... وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (٢)

وما إن عن له سرب حتى حمل عليه بفرسه الذى يقول فيه بعد أن أجاد نعته

فعادى عداء بين ثور ونعجة ... دراكا ولم ينضح بماء فيغسل

فظل طهاة اللحم من بين منضج ... صفيف شواء أو قدير معجل (٣)

وهكذا قضى يومه مع صحبه ثم راحوا وكانت العشية عشية برق ينذر بمطر وابل لم يلبث أن هطل

فأضحى يسح الماء حول كتيفة ... يكب على الاذقان دوح الكنهبل (٤)

ومر على القنان من نفيانه ... فأنزل منه العصم من كل منزل (٥)

ثم لم يترك جذع نخلة الا قعره ولا أطما الا جدله فغدا ثبير ورأس المجيمر وهما جبلان كما قال

كأن ثبيرا فى عرانين وبله ... كبير أناس فى بجاد مزمل (٦)

---

(١) الدرير الدار والخذروف نخلة الصبى (٢) أيطلا الظبي خاصرتاه والسرحان الذئب والتتفل الثعلب (٣) القدير ما يطبخ فى القدر (٤) كتيفة موضع والكنهبل شجر ودوحه عظيمه (٥) القنان جبل ونفيان المطر ما يتطاير منه ومن زائده (٦) ثبير جبل وعرانين الوبل أوائلة ومزمل صفة لبجاد تجوزا

كأن ذرا رأس المجيمر غدوة من السيل والغثاء فلكة مغزل(١)

وما أجمل موازنته بين حالى المكاكى والسباع غب هذا السيل حيث يقول وبه ختم المعلقة

كأن مكاكى الجواء غدية صبحن سلافا من رحيق مفلفل(٢)

كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل(٣)

٢ — معلقة طرفة

بدأ طرفة معلقته كما بدأ امرؤ القيس بالوقوف على الدمن وتذكر أهلها الظاعنين واتفق معه لولا القافية فى البيت

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

ولكنه خالف فى ذكر الهوادج وفى تشبيهها بالسفن وتشبيه حيازيم السفن بيد المفايل قال

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد(٤)

عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدى(٥)

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم التربب المفايل باليد (٦)

ومنها انتقل الى التشبيب بفتاة تشبيبا لم يطل فيه ولكنه أجاد وكان فيما قال فى الثغر والوجه

---

(١) المجيمر جبل والغثاء النبت وفلكة المغزل رأسه (٢) المكاكى نوع من الطيور والسلاف الخمر والمفلفل المخلوط بالفلفل (٣) الانبوش الاصل والعنصل البصل البرى (٤) جمع حدج وهو مركب النساء والخلايا العظام والنواصف المتسعات ودد واد عظيم (٥) نسبة الى عدول قبيلة بالبحرين وابن يامن رجل (٦) الحباب الامواج والحيزوم الصدر والمفايل لاعب القمال

وتبسم عن ألمى كأن منورا تخلل حر الرمل دعص له ندى (١)

سقته أياة الشمس الا لثاته أسف ولم تكدم عليه بأثمد (٢)

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقى اللون لم يتخدد (٣)

وكل ذلك لم يكن له بالمقصود فقد مر عليه مرا قضاء لحق المطالع عند العرب ثم انتقل الى مايريد وأوله وصف الناقة فسابغ فيه أربعة وثلاثين بيتا لم يترك شيئا من أوصافها الحسية الا وفاه بدقة وحسن أداء ولا من ضروب سيرها نوعا الا أجراه فى لباقة ورصف كلام وكان آخر ما أفرغ عليها من صفة جعله اياها أداة نجدته المستصرخين ولو لم يقصدوه قال

على مثلها أمضى اذا قال صاحبى ألا ليتنى أفديك منها وأفتدى

وجاشت اليه النفس خوفا وخاله مصابا ولو أمسى على غير مرصد

اذا القوم قالوا من فتى خلت أننى عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

ثم ذكر سيرها وشبهها متبخترة فيه بالوليدة ترى ربها أذيال ثوبها الطويل فكان التشبيه الثالث والعشرين فى الناقة مما انفرد به دون سائر الشعراء ومن ثم عد من وصافى الابل المبرزين وقد وصل هذه المفخرة التى انتهى اليها فى هذا الوصف بمفاخر تنبىء عن صفاته وأحواله فذكر أنه فوق نجدته وطيب أرومته تلقاه فى حلقة السادة إذ تكون المقامة كما تصطاده فى حوانيت اللاهين حين اللهو قد توسط مداماه ومعه قينة تغنيهم وأن عشيرته لذلك قد تحامته ولكن ذلك التحامى لم يطعن فى بقائه معروفا للجميع قال

---

(١) الالمى الضارب الى السواد والمنور الاقحوان والدعص الكثيب

(٢) أياة الشمس شعاعها والكدم العض والاسفاف الخلط (٣) التخدد التشقق.

فان تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وان تلتمسنى فى الحوانيت تصطد
نداماى بيض كالنجوم وقينة تروح الينا بين برد ومجسد (١)
رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس الندامى بضة المتجرد (٢)
اذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروقة لم تشدد (٣)
اذا رجعت فى صوتها خلت صوتها تجاوب أظآر على ربع ردى (٤)
ومازال تشرابى الخمور ولذتى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى
الى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد (٥)
رأيت بنى غبراء لا ينكرونى ولا أهل هذاك الطراف الممدد (٦)

فهذه نفسية طريفة اللاهى حللها لنا فى هذه الأبيات وأخذ بعدها يلوم من يزجره أن يحضر الوغى ويشهد اللذات مادام لايستطيع عنه دفع المنون ويذكر أن العيش لثلاث الخمر والنجدة والنساء ومن حرمها كان بخيلا لايلبث أن يترك ماله ويموت فلا يكون لقبره فضل على قبر الكرماء وهذا بعض ماقال

أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى فى البطالة مفسد (٧)
أرى الموت يعتام الكبار ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه فى اليد (٨)
منى مايشأ يوما يقده لحتفه ومن يك فى حبل المنية ينقد

---

(١) المجسد مايلى الجسد أو ماصبغ بالجساد وهو الزعفران (٢) أقطاب الجيب مخرج الرأس منه (٣) المطروقة الضعيفة (٤) الاظآر ذوات الولد والربع ابن الربيع (٥) المعبد المطلى بالقطران (٦) الغبراء الارض وبنوها الفقراء والطراف البيت (٧) النحام السعال سمى به البخيل لانه يكثر سعاله اذا طلب منه شيء (٨) الطول الحبل الذي يطال للدابة لترعى

ومن هنا خرج الى مالك ابن عمه يعاتبه على لومه اياه فى طلبه حمولة أخيه معبد واستعانته به فى الطلب مع أنه فعل ذلك تقريبا للقربى مع قدرته على مقابلة الجميل بجميل وفى هذا فاضت عاطفته بما تترك التعبير له حيث يقول

فلو كان مولاى امرأ هو غيره ... لفرج كربى أو لانظرنى غدى
ولكن مولاى امرؤ هو خانقى ... على الشكر والتساآل أو انا مفتدى
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند
فذرنى وخلقى إننى لك شاكر ... ولو حل بيتي نائيا عند ضرغد (١)
فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد ... ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد
فأصبحت ذا مال كثير وزارنى ... بنون كرام سادة لمسود

على أنه لم يلبث أن سرى عن نفسه فاخرا بقوته وشجاعته وفتكه واغارته بأبيات يقول فى أولها

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه ... خشاش كرأس الحية المتوقد (٢)

وفى آخرها على لسان من يقصد ابله فيغتصب منها ماشاء فيدعه خوفا منه وفرقا

وقال ذروه انما نفعها له ... والا تكفوا قاصى البرك يزدد (٣)

ذلك فخره بنفسه ومن كان هذا شأنه كان جديرا اذا مات أن يبكى ولذلك ساق القول بعد الى ابنة عمه طالبا منها أن تنعاه بما هو أهله قال

فان مت فانعينى بما أنا أهله ... وشقى على الجيب يابنة معبد
ولا تجعلينى كامرئ ليس همه ... كهمى ولا يغنى غنائى ومشهدى

ثم أخذ يجمل لها صفاته الى أن اختتم المعلقة بهذه الابيات الثلاثة الخالدة

---

(١) ضرغد اسم جبل ناء (٢) الضرب الخفيف الجسم والخشاش الدخال (٣) البرك الابل .

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد
ستبدى لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود
ويأتيك بالاخبار من لم تبع له بتاتا ولم تضرب له كف موعد

هذه معلقة طرفة وهى على ما رأيت منها شديدة الاسر قوية المعنى جيدة التشبيه ذات أمثال سائرة وحكم بالغة ولذلك اعتبرت أجود المعلقات. ولو كان لطرفة من الشعر ما يقارب فى الكثرة شعر الاربعة المقدمين امرىء القيس وزهير والنابغة والاعشى لوضع معهم كما قال أبو عبيدة أو لفضلهم جميعا كما قال الكثيرون من الشعراء والرواة والادباء

٣ — معلقة زهير

لم يسق زهير معلقته كما ساق زميلاه السابقان معلقتيهما لغير ما سبب ظاهر سوى حفزة الشعر القاهرة تعبيرا عما فى النفس من ضروب الاحاسيس والوجدانات بل قالها فى غرض معين هو مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف على تداركهما عبسا وذبيان بالصلح بينهما فى حرب داحس والغبراء وتحملهما فى ذلك على غير جناية منهم الكثير من الديات وتلك يد تقاس عظمتها بما كان لتلك الحرب من شيوع ذكر وطول زمان ولكنه لم يجردها فى ابتدائها من ذكر الدمن والاطلال ووصف الظعائن اذا تحملن للاسفار فقد وقف على الدمن وأطال هذا الوصف فأجاد ووقع له من خيار التشبيهات تشبيهان حيث يقول

بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن ووادى الرس كاليد للفم
فلما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم
كأن قتات العهن فى كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم(١)

(١) العهن الصوف والفناعنب الذئب

ثم تركهم مقيمين الى ما أراد من تسجيل يد هرم وعوف فقال

سعى ساعيا غيظ بنى مرة بعد ما تبزل ما بين العشيرة بالدم(١)
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم(٢)
تداركتما عبسا وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم(٣)
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين فى عليا معد هديتما ومن يستبح كنزا من المجد يعظم

وبعد أن أفاض فيما احتمله هذان السيدان من مغارم أصبحت مغانم لذوى الديات انتقل الى المتحالفين يسألهم الاخلاص للصلح ويحذرهم مغبة الحرب واصفا سوء عواقبها وهو خير ماقيل فيها قال

ألا أبلغ الاحلاف عنى رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله مافى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر يوم الحساب أو يعجل فينقم
وما الحرب الا ماعلمتم وذقتم وماهو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضرى اذا ضريتموها فتضرم
فتعركم عرك الرحى بثفالها وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم (٤)

---

(١) تبزل اشتد واختلط (٢) السحيل المفتول على قوة واحدة والمبرم المفتول على اثنتين (٣) منشم امرأة تبيع عطر التحالف أو رجل يبيع حنوط الميت (٤) ثفال الرحى مايبسط تحتها ليقع عليه الطحين وتلقح كشافا تحمل مرتين فى السنة والاتئام ولادة توأمين

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم (١)
فتغلل لكم مالا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم (٢)

ولم يفته فى هذا المقام أن يعيب على حصين بن ضمضم تخلفه عن الصلح على نية الاخذ بثأر أخيه وأن يحمد لمن ثأر فيهم على بعد الوتر منهم قبولهم الدية احتراما للصلح دون أن يجاروه القتال كما لم يفته أن يذكر قصد حصين على قوته وشدة بطشه وذلك قوله

لعمرى لنعم الحى جر عليهم بما لا يوائيهم حصين بن ضمضم
وكان طوى كشحا على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتقدم
وقال سأقضى حاجتى ثم أتقى عدوى بألف من ورائى ملجم
فشدوا لم يفزع بيوتا كثيرة لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم (٣)
لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم
جرىء متى يظلم يعاقب بظلمه سريعا والا يبد بالظلم يظلم

وكأن زهيرا صفت نفسه وقد عالج هذا كله فأمدته روحانيته بتلك الحكم الفذة الكثيرة التى ختم بها معلقته فكانت فى بابها أبلغ دليل على أن الفطرة إذا صفت أدركت ما يقف العقل أمامه حائرا لا يدرى كيف كان لها اليه السبيل وهاهى ذى

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم
وأعلم علم اليوم والامس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عم

---

(١) المراد باحمر عاد أحمر ثمود لأنه العاقر (٢) يقصد بقوله من قفيز ودرهم أن الدراهم تكال بالقفيز (٣) أم قشعم المنية والقشعم النسر يأتى وراءها ليأكل من القتلى

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وان يرق أسباب السماء بسلم
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يعص أطراف الزجاج فانه يطبع العوالى ركبت كل لهذم(١)
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه الى مطمئن البر لا يتجمجم (٢)
ومن يجعل المعروف فى غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم
وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

٤ - معلقة لبيد

جاءت معلقة لبيد قطعة صادقة فى تصوير البادية أصدق تصوير من النواحى التى قصد اليها فانه بدأها بذكر الدمن فى عفائها وكيف تحولت الى مراعى عشب ونبات ومراتع ظباء ونعام ولكنها مع هذا قد جلت أطلالها السيول فوقف يسألها وبقيت هى صما خوالد لا تبين فجاوزها الى تذكر أهلها الراحلين

---

(١) الزجاج جمع زج وهى الحديدة فى أسفل الرمح واللهذم السنان فى عاليته

(٢) التجمجم التزحزح

وأخذ يصف الظعن ويتذكر نوار ولكنه عاد يقول لنفسه وما تتذكر من نوار وقد نأت الى ديار لاأمل مع بعدها فى لقاء

ومن جميل التشبيه فى بعض ما تقدم قوله :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها (١)

أو رجع واشمة أسف نؤورها كففا تعرض فوقهن وشامها (٢)

وقد أخذ على نوار ايغالها فى رحلتها وأعلن عزمه على قطع لبانتها بأبياته التى يقول فيها

فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرامها

واحب المجامل بالجزيل وصرمه باق اذا ظلعت وزاغ قوامها (٣)

بطليح أسفار تركن بقية منها فأحنق صلبها وسنامها (٤)

ثم اندفع يصف الناقة ويطيل ولكنه حاد عن جعل الوصف فى جسمها فجعله فى سيرها وأخذ يشبهها فى سرعتها تارة بالسحابة الجهام تطردها ريح الجنوب وأخرى بأتان ملمع حملت من أحقب غيور وامتنعت عليه فرابه أمرها وعلا بها حدب الآكام حتى اذا سلخا الشتاء بعيدين عن الماء وهبت ريح الصيف اشتد بهما الظمأ ففزعا الى الورود وانحدرا الى النهر انحدارا كان له غبار كدخان نار أوقدت اليابس والرطب من النبات . وثالثة ببقرة وحشية أكل السبع فريرها فأخذت تبحث عنه سبعا كاملة الايام حتى اذا يئست وجف

---

(١) جمع زبور وهو الكتاب والمتون السطور (٢) النئور النفس المتخذ من دخان السراج والنار والنقس المداد (٣) الكفف بكسر الكاف جمع كفة بالكسر وهى الدارة وكل مستدير وبالضم جمع كفة مضمومة لكل مستطيل وأسف ذر وتعرض ظهر (٤) ظلعت عرجت يقصد الصحبة والطليح المعي وأحنق ضمر

ضرعها أحست صوت رماة أرسلوا خلفها الكلاب فكان لها عدو للنجاة شديد فذلك حيث يقول

واذا تغالى لحمها وتحسرت وتقطعت بعد الكلال خدامها (١)

فلها هباب فى الزمام كأنها صهباء خف مع الجنوب جهامها (٢)

أو ملمع حملت لأحقب لاحه طرد الفحول وضربها وكدامها (٣)

يعلو بها حدب الآكام مسحج قد رابه عصيانها ووحامها (٤)

إلى آخر ماقال فى الأتان ثم أعقبه بقوله فى البقرة

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها (٥)

خنساء ضيعت الفريز فلم يرم عرض الشقائق طوفها وبغامها (٦)

علهت تردد فى نهاء صعائد سبعا تؤاما كاملا أيامها (٧)

حتى اذا يئست وأسحق حالق لم يبله ارضاعها وفطامها (٨)

وتوجست رز الانيس فراعها عن ظهر غيب والانيس سقامها (٩)

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها (١٠)

وبعد هذه الاطالة فى وصف الناقة وسيرها أخذ يفتخر على النوار بأنه قضاء

---

(١) تغالى ارتفع والخدام جمع خدمة وهى السير (٢) الهباب النشاط والصهباء السحابة الحمراء (٣) الملمع الأتان المشرقة أطباؤها باللبن ووسقت حملت والاحقب العير فى وركيه بياض ولاحه غيره (٤) المسحج المخدش من العض (٥) المسبوعة التى أكل السبع ولدها الذى خذلته بتركه واتباع مقدم الصوار وهو القطيع (٦) الفريز الولد ولم يرم لم يبرح والبغام الصوت (٧) علهت انهمكت وصعائد موضع ونهاؤه غدرانه واحدها نهى (٨) الخالق الضرع وأسحق ذهب لبنه بجفافه (٩) الرز الصوت (١٠) مولى المخافة موضعها

لبانات وصال قطاع يعاف مالا يرضى من الديار وأنه سمار ليال غلاء سباء وزاع لغدوات الشمال وأنه يحمى الحى فيرتقى بفرسه المرتفعات فى منابلج الصباح فاذا ما أمسى أسهل وفرسه لا يزال منتصبا للحراسة فى البيات وأنه مع هذا حلال مشكلات فى المجامع والمقامات نحار بالقداح لجزر الايسار يدعو بهن لذوى الحاجات والضيفان ممن يأوون الى أطنابه فيجدون الخصب والثراء وهذا بعض ماقال

فبتلك اذ رقص اللوامع بالضحى ... واجتاب أردية السراب أكامها (١)

أقضى اللبانة لا أفرط ريبة ... أو أن يلوم بحاجة لوامها

أو لم تكن تدرى نوار بأننى ... وصال عقد حبائل جذامها

تراك أمكنة إذا لم أرضها ... أو يعتلق بعض النفوس حمامها

أغلى السباء بكل أدكن عاتق ... أوجونة قدحت وفض ختامها (٢)

وغداة ريح قد وزعت وقرة ... قد أصبحت بيد الشمال زمامها (٣)

ولقد حميت الحى تحمل شكتى ... فرط وشاحى إذ أغدو لحامها (٤)

وكثيرة غرباؤها مجهولة ... ترجى نوافلها ويخشى ذامها (٥)

أنكرت باطلها وبؤت بحقها ... عندى ولم يفخر على كرامها

وجزور أيسار دعوت لحتفها ... بمغالق متشابه أجسامها (٦)

---

(١) يقصد لوامع السراب واجتاب الاكام أرديته لبسها أى احتدمت الهواجر (٢) السباء شراء الخمر والادكن العاتق وصفان للزق والجونة الخابية السوداء وقدحت ملئت منها القداح (٣) وزعت دفعت بالنحر (٤) الفرط الفرس المتقدمة السريعة (٥) يقصد الدار تقوم فيها المقامة (٦) الايسار أصحاب الميسر واحدهم يسر والمغالق السهام واحدها مغلاق

أدعو بهن لعاقر أو مطفل بذات لجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الجنيب كأنما هبطا تبالة مخصبا أهضامها

ذلك فخره بنفسه وقد أعقبه فخره بقومه ينسبهم الى سيادة المحافل وحسن سياسة العشيرة وأن تلك سجايا فيهم يجدر بالحاسد ألا يطمع فيها لانها حباء لهم من المليك لما جبلوا عليه من معالى الامور قال

إنا اذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمة جشامها (١)
ومقسم يعطى العشيرة حقها ومغذ مر لحقوقها هضامها (٢)
فضلا وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب رغائب غنامها
من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة واما مها
لا يطبعون ولا يبور فعالهم إذ لا يميل مع الهوى أحلامها

ثم التفت يخاطب الطامع فى مثل مكانتهم بقوله

فاقنع بما قسم المليك فانما قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الامانة قسمت فى معشر أوفى بأوفر حظنا قسامها
فبنى لنا بيتا رفيعا سمكه فسما اليه كهلها وغلامها

إلى أن ختم المعلقة بأبيات أخر يجمل فيها ماعرفوا به من مكارم الاخلاق

د — معلقة عمرو بن كلثوم

خالف عمرو رجال المعلقات فلم يبدأ معلقته بذكر الدمن والديار وتعرف الآثار والاطلال انما بدأها بوصف الخمر وتأثيرها والدعوة الى الاستصباح بها وانتهابها ولكنه لم ينس أن يستوقف الظعينة قبل التفرق لتخبره هل أحدثت

(١) لزاز العظيمة قرينها (٢) المغذ مر الغضوب لاجل حقوق العشيرة الهضام لحقوق نفسه

صرما وقطعا ويخبرها بما له أيام الكريهة من بلاء يقر العيون ثم أخذ يصف وجوه محاسنها ووجده بفراقها فى أبيات طويلة أنهي بها تشبيب قصيدته قال فى مبدئها

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الاندرينا (١)

مشعشعة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا (٢)

وقال

قفى قبل التفرق ياظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا

قفى نسألك هل أحدثت صرما لو شك البين أم خنت الامينا

وقال

تريك اذا دخلت على خلاء وقد أمنت عيون الكاشحينا

ذراعى عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا (٣)

إلى آخر ماوصف ثم قال

فما وجدت كوجدى أم سقب أصيبت فرجعت الحنينا (٤)

ولا شمطاء لم يترك شقاها لها من تسعة الا جنينا

وبعدئذ خرج الى الغرض الذى من أجله قرض المعلقة وهو التفاخر بقتله عمرو بن هند فى حادث يذكر له الرواة قصصا وحكايات ولا يعدو عندى أن يكون هذا القتل وقع باتفاق بينه وبين البيت المالك لما كان من طول الحكم لعمرو

---

(١) الاندرون قرى بالشام (٢) المشعشعة الممزوجة والحص نبت أحمر النور (٣) العيطل الطويلة العنق من النوق والادمة فى الابل البياض و لذا الهجنة ولم تقرأ لم تحمل (٣) السقب ولد الناقة قبل فصاله

وشدة عسفه بأهله ولذلك أسدلوا الستار عليه فلم يشنوا حربا ولم يطلبوا بثأر وانما اختير ابن كلثوم لأنه رئيس تغلب وكثيرا ما غاضبها ابن هند وظاهر بكرا عليها كما حدث بعد سماعه معلقة ابن حلزة على ما سيأتى فى بعض ما كان بينهما من خلاف على أنى اذا لم أجزم بهذا الاتفاق فلا أقل من أن أقول لقد وقع القتل على قلوب المناذرة بردا وسلاما وبخاصة صاحب التاج من بعده وهو أخوه النعمان هذا وقد بدأ ابن كلثوم فخره بمخاطبة الملك القتيل سخرية وتهكما خطابا يذكره فيه بأيام لهم غر طوال وبقدمهم منذ القدم فى الحروب وعركهم من يتعرض لهم وحمايتهم من يستجير بهم وأنهم لم يعاملوه بغير ما عاملوا به الملوك من عصيان وخروج منذ أيام خزازى الى حيث قتلوه وكان ذلك منه فى أكثر من خمسين بيتا هذا بعضها

أبا هند فلا تعجل علينا ... وانظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا ... ونصدرهن حمرا قد روينا

وأيام لنا غر طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا

إلى أن قال

متى ننقل الى قوم رحانا ... يكونوا فى اللقاء لها طحينا

يكون ثفالها شرقى نجد ... ولهوتها قضاعة أجمعينا (١)

والى أن قال

ألا لا يعلم الاقوام أنا ... تضعضعنا وأنا قد ونينا

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

---

(١) ثفال الرحى ما يبسط تحتها ولهوتها النبضة من الحب تلقى فيها

بأى مشيئة عمرو بن هند تكون لقيلكم فيها قطينا (١)
بأى مشيئه عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وتوعدنا رويدا متى كنا لامك مقتوينا (٢)
فان قناتنا ياعمرو أعيت على الاعداء قبلك أن تلينا
اذا عض الثقاف بها اشمأزت وولته عشوزنة زبونا (٣)
عشوزنة إذا انقلبت أرنت تشج قفا المثقف والجبينا

ثم أخذ يفخر برجالهم الاقدمين ويعدد مآثرهم وأيامهم مشركا معهم بنى عمهم بكر ولكنه لم يرض أن يكونوا مثلهم فى هذه المفاخر قال

ونحن غداة أوقد فى خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينا (٤)
وكنا الأيمنين اذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

ومن هنا أخذ يفخر على بكر ويذكرهم بما كان لهم عليهم من غلاب وقد أجاد حيث يعالج ذلك وصف الدروع والنساء وراء الخيل يوم الروع قال

علينا كل سابغة دلاص ترى فوق النطاق لها غضونا (٥)
اذا وضعت عن الابطال يوما رأيت لها جلود القوم جونا
كأن غضونهن متون غدر تصفقها الرياح اذا جرينا

---

(١) القطين الخدم (٢) المقتوون جمع مقتوى بطرح ياء النسبة نسبة الى المقتى وهو المصدر الميمى لغتا يقتو اذا خدم الملوك (٣) العشوزنة الصلبة الشديدة والزبون الدفوع (٤) خزازى جبل ويقصد يوما كان عنده بين نزار ويمن (٥) السابغة الدرع التامة والدلاص البراقة والغضون التشجنات جمع غضن

وتحملنا غداة الروع جرد عرفن لنا نقائد وافتلينا (١)
على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهدا إذا لاقوا كتائب معلمينا
ليستلبن أفراسا وبيضا وأسرى فى الحديد مقرنينا
إذا مارحن يمشين الهويني كما اضطربت متون الشاربينا
يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا
اذا لم نحمهن فلا بقينا لشىء بعدهن ولا حيينا

ذلك فخره وقد رأى أن يدعمه بأنه معروف لقبائل معد فكلها تعترف لهم يوم الفخار بكرمهم وفتكهم وعزتهم وإبائهم ومن ثم عاد الى مثل ما بدأ به مع ابن هند فكان ختام المعلقة قال

وقد علم القبائل من معد اذا قبب بأبطحها بنينا
بأنا المطعمون اذا قدرنا وأنا المهلكون اذا ابتلينا
وأنا المانعون لما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا التاركون اذا سخطنا وأنا الآخذون اذا رضينا
وأنا العاصمون اذا أطعنا وأنا العارمون اذا عصينا (٢)
ونشرب ان وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ثم قال

اذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الذل فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
اذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

---

(١) النقائد ما أنقذت من أيدي الاعداء وانتلأوها إبلادها (٢) العارمون ذوو العرام وهو الحدة

٦ — معلقة عنترة

جاءت معلقة عنترة لغير غرض خاص كما جاءت معلقات امرىء القيس وطرفة ولبيد وقد بدأها بما بدءوا به فوقف على الاطلال وخاطب الديار كما هى سنة الشعراء ثم أبان أنه يخاطب دار عبلة وأخذ يستوحيها الجواب ويصف صاحبتها قال

يادار عبلة بالجواء تكلمى ... وعمى صباحا دار عبلة واسلمى (١)

دار لآنسة غضيض طرفها ... طوع العناق لذيذة المتبسم

وعاد ثانية يستوقف الناقة على طلل عبلة ويحييه ويستبعد الديار التى حلت بها ويعجب كيف يكون المزار ثم خلص من هذا الى وصف ما لعبلة من حسن ثغر وطيب مقبل فأجاد قال

إذ تستبيك بذى غروب واضح ... عذب مقبله لذيذ المطعم (٢)

وكأن فأرة تاجر بقسيمة ... سبقت عوارضها اليك من الفم (٣)

أو روضة أنفا تضمن نبتها ... غيث قليل الدمن ليس بمعلم (٤)

جادت عليه كل بكر حرة ... فتركن كل قرارة كالدرهم

سحا وتسكابا فكل عشية ... يجرى عليها الماء لم يتصرم

وخلا الذباب بها فليس ببارح ... غردا كفعل الشارب المترنم

هزجا يحك ذراعه بذراعه ... قدح المكب على الزناد الاجذم (٥)

وبعد هذا التشبيه الطويل عاد الى عبلة يذكر تنعمها على الوثير من الفراش

---

(١) الجواء موضع بعينه (٢) الغروب جمع غرب وهو الحد (٣) فأرة المسك آنيته لأنه يفور منها والقسيمة الحسنة التقاسيم (٤) الانف التى لم ترع وتضمن سقى (٥) هزجا مصوتا والاجذم الناقص اليد

بينما هو على سرج فرسه وأخذ يتمنى أن تبلغه اياها شدنية غير ولود وانساق يصف هذه الناقة ويشبهها بالظليم تأوى له قلص النعام كأنه العبد الاصلم ذوالفرو الطويل وما أبين قوله إذ يذكر اندفاعها فى سيرها

وكأنما تنأى بجانب دفها الـ وحشى من هزج العشى مؤوم(١)

هر جنيب كلما عرضت له غضبي اتقاها باليدين وبالفم

وما انتهى من صفة الناقة حتى أوغل فيما هو قصده فى معلقته من ذكر فروسيته وبطولته وبدأه بقوله لعبلة لا تقذفى دونى القناع فان من يأخذ الفارس المستلئم مثلى جدير أن يحوزك وينال منك الثناء بما هو أهله فاني سمح المخالطة هر المذاقة شراب مدام لا يمنع الصحو كرمي ولا تنال النشوة عرضى

فاذا شربت فانى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم

واذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمي

وهذا معنى لم يجار فيه وقد أخذ بعده يعدد مواقف بطولته فيقول كم من حليل غانية ولا يحل لها الا البطل قد جندلته ومدجج كره الكماة نزاله قد طعنته وحامى حقيقة معلم بمهندى قد علوته ولم ينس فى هذه المواقف الثلاثة من حماسته أن يخلطها بنسيبه فى عبلة كما هو دأبه. قال فى أولها

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمى

يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ويقول فى نهايتها

ياشاة ماقنص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم

---

(١) الدف الجنب والوحشى الايمن لانه لا يركب منه. والمؤوم القبيح الرأس

فبعثت جاريتى فقلت لها اذهبى ... وتجسسى أخبارها لى واعلمى

قالت رأيت من الاعادى غرة ... والشاة ممكنة لمن هو مرتمى

وكأنما التفتت بجيد جداية ... رشأ من الغزلان حر أرثم (١)

وعاد من هذا الى ذكر مواقفه داعيا على من لا يشكر نعمته جحود فضله وذاكرا أنه حويص على وصاة عمه بالثبات فى أحرج المضايق فكان منه فى الكلام عن فرسه هنا ابداع ليس بعده منال قال

لما رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مذمم (٢)

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر فى لبان الادهم (٣)

مازلت أرميهم بغرة وجهه ... ولبانه حتى تسربل بالدم

فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلى بعبرة وتحمحم (٤)

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمى

وزاد ذلك منه نبلا وكرما أن جعل فى نداء الفوارس له بالاقدام فى الشدائد ما يشفى نفسه ويبرىء سقمه قال

ولقد شفى النفس وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنتر أقدمى

ثم ختم المعلقة بخشيته الموت قبل أن ينال من ابنى ضمضم لتوعدهما اياه بعد قتله أباهما قال

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرة على ابنى ضمضم (٥)

الشاتمى عرضى ولم أشتمهما ... والناذرين اذا لم ألقهما دمى

إن يفعلا فلقد تركت أباهما ... جزر السباع وكل نسر قشعم (٦)

---

(١) الجداية ولد الظبية والرشأ القوى والارثم الذى فى شفته العليا وأنفه بياض (٢) يتذامرون يتحاضون على القتال (٣) أشطان البئر حبالها واللبان الصدر (٤) ازور مال وتحمحم الفرس صهيله بحنين (٥) هما حصين وهرم (٦) القشعم المسن

٧ — معلقة الحارث ابن حلزة

قيلت هذه المعلقة لغرض خاص هو استمالة عمرو بن هند الى بكر والحارث منها فى مقاضاة كانت عنده بينها وبين تغلب قوم عمرو بن كلثوم قاتل ابن هند كما سبق وقد احتذى حذو الشعراء فى بدئها فأبدى تحرقه على بين أسماء وأخذ يذكر عهدها السالف ومكانها النائى فيبكى وما يحير البكاء قال

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء
بعد عهد لنا ببرقة شما ء فأدنى ديارها الخلصاء (١)
لا أرى من عهدت فيها فأبكى الـ ـيوم دلها وما يحير البكاء (٢)

وأردف ذلك بذكر الناقة يستعين بها على الهم ويصفها وقد بلغ فى ذلك ما أراد فى ايجاز وحسبك قوله

غير أنى قد أستعين على الهمـ ـم اذا خف بالثوى النجاء (٣)
بزفوف كأنها هقلة أمـ ـم رئال دوية سقفاء (٤)
آنست نبأة وأفزعها القنـ ـاص عصرا وقد دنا الامساء
فترى خلفها من الرجع والوقـ ـع منينا كأنه أهباء (٥)

ومن هنا انتقل الى موضوع المعلقة فبدأ يصف ظلم بنى عمهم إياهم وتبييتهم لهم الشر وقد أجاد فى وصف التهيؤ للحرب ما شاءت له الاجادة حيث يقول

---

(١) العهد اللقاء (٢) الدلة ذهاب العقل وما يحير ما يرجع (٣) الهم ما يهم به (٤) الزفوف السريعة والهقلة النعامة والدوية نسبة الى الدو وهو الصحراء والسقفاء الطويلة مع انحناء (٥) المنين الغبار الرقيق والاهباء جمع هباء وهو ما تطاير وانبث

وأتانا من الحوادث والأن باء خطب نعى به ونساء
أن اخواننا الاراقم يغلو ن علينا فى قيلهم إخفاء (١)
يخلطون البرئ منا بذى الذن ب ولا ينفع الخلى الخلاء
زعموا أن كل من ضرب الد ير موال لنا وأنا الولاء (٢)
أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصـ ـهال خيل خلال ذاك رغاء

ثم أخذ يخاطب من وشى بهم الى عمرو بن هند بأنهم واثقون من عدل الملك على أنهم غير خائفين وقديما وشى بهم فكانت ما نعتهم حصونهم وهذا إذ يقول

أيها الناطق المرقش عنا عند عمرو وهل لذاك بقاء (٣)
ملك مقسط وأفضل من يمـ ـشى ومن دون ماليه الثناء (٤)
لاتخلنا على غراتك إنا قبل ماقد وشى بنا الاعداء (٥)
فبقينا على الشناءة تنمـ ـينا حصون وعزة قعساء (٦)

وأتبع هذا بأنهم مع قدرتهم ذوو أهبة لقبول أية خطة فى الصلح تراد وأنهم أكفاء لمقابلة مايطلب منهم بمثله وأخذ يذكر ماضيهم تأييداً لما يقول قال

أيما خطة أردتم فأدو ها الينا تمشى بها الاملاء (٧)

وبعد أن بين أنواع الخطط فى أبيات له أعقبها بقوله

هل علمتم أيام ينتهب النا س غوارا لكل حى عواء (٨)

---

(١) الاراقم لقب لبطون من تغلب والاخفاء الالحاح (٢) الغير هنا السيد والمراد كاذب وضربه الرضا بقتله وقوله وأنا الولاء أى أصحاب الولاء (٣) المرقش المريب المشكك (٤) المقسط العادل والقاسط الجائر (٥) الغراة الاغراء (٦) تنمينا ترفعنا (٧) الاملاء جماعات الاشراف جمع ملأ (٨) الغوار المغاورة

إذ ركبنا الجمال من سعف البحـ ـرين سيرا حتى نهاها الحساء
ثم ملنا على تميم فأحرمـ ـنا وفينا بنات مر إماء (١)
لا يقيم العزيز بالبلد السهـ ـل ولا ينفع الذليل النجاء

ثم عاد الى المبلغ عنهم ثانية يذكره بأن لهم على عمرو بن هند ثلاث آيات آية ردهم قيس بن معديكرب الحميرى عنه وقد غزا الحيرة فى معد كلها وكذا حجر بن أم قطام وقد غزاها أيضا فى فارسية خضراء . وآية فكهم غل امرىء القيس اللخمى من الغساسنة وإفادتهم بأبيه المنذر إذ قتلوه من ربهم والثالثة أنكم ابن اختهم فأمه منهم وهم قد ولدوه وفى ذلك يقول

أيها الناطق المبلغ عنـا عند عمرو وهل لذاك انتهاء
من لنا عنده من الخير آيا ت ثلاث فى كلهن القضاء
آية شارق الشقيقة إذ جا ءوا جميعا لكل حى لواء (٢)
حول قيس مستلئمين بكبش قرظى كأنه عبلاء (٣)
فرددناهم بطعن كأيخ رج من خرته المزاد الماء (٤)
ثم حجرا أعنى ابن أم قطام وله فارسية خضراء (٥)
وفككنا غل امرىء القيس عنه بعد ما طال حبسه والعناء (٦)

---

(١) أحرمنا دخلنا فى الاشهر الحرم (٢) الشقيقة أرض صلبة بين رملتين وشارق مضىء وهى من اضافة الصفة الى الموصوف والمراد اسم مكان كانت به الموقعة (٣) يريد قيس بن معديكرب الملك الحميرى والكبش السيد والقرظى كناية عن أنه شديد الوطأة لان القرظ شجر يدبغ الاديم والعبلاء المضببة البيضاء (٤) المزاد الزقاق وخرتها ثقبها (٥) هو والد امرىء القيس (٦) يقصد أحد اللخميين لا امرأ القيس بن حجر

وأقدناه رب غسان بالمنـ ـذر كرها إذ لا تكال الدماء (١)

وولدتا عمرو بن أم أياس من قريب لما أتانا الحباء (٢)

ثم عاد الى تغلب يطلب اليهم أن يتركوا التكبر والتعامي ويذكروا حلف ذي المجاز وما قدم فيه من عهود وكفله من كفلاء حذر الجور والتعدي مثل ما يذكرونهم قال

فاتركوا الطيخ والتعاشي وإما تتعاشوا ففي التعاشي الداء (٣)

واذكروا حلف ذي المجاز وما قد دم فيه العهود والكفلاء (٤)

حذر الجور والتعدي وهل ينقض ما في المهارق الاهواء (٥)

واعلموا أننا وإياكم فيـ ـما اشترطنا يوم اختلفنا سواء

وبعدئذ أخذ يعيرهم بجنايات غيرهم عليهم وأنه لا يجمل بهم أن يحملوهم جرمهم فيقول

أعلينا جناح كندة أن يغـ ـنم غازيهم ومنا الجزاء

وهكذا أكثر التعداد حتى ختم المعلقة بتغلبهم عليهم يوم الحيارين كيلا يظنوا فيهم ضعفا أو أنهم ليسوا كهؤلاء مستشهدا على ذلك اليوم بالرب وهو الملك حيث يقول

وهو الرب والشهيد على يو م الحيارين والبلاء بلاء (٦)

---

(١) رب غسان ملكها (٢) الحباء المهر (٣) الطيخ التكبر والتعاشي التعامي (٤) ذو المجاز موضع أصلح فيه عمرو بن هند بين بكر وتغلب (٥) جمع مهرق وهو خرقة تطلى وتصقل ليكتب عليها (٦) كان لبكر على تغلب ويقصد بالرب عمرو بن هند

مميزات الكلام الجاهلى

إن لكلام الجاهليين سمات عامة تتناول النثر والشعر معا وأخرى خاصة بكل منهما

أولا — المميزات العامه

فالعامة يراها المطلع عليه فى عباراته ومعانيه والغرض العام الذى يرمى اليه وهاهى ذى

ا — فى العبارات

أول مايلاحظ على عباراته خلوها من اللحن لتمكن السليقة فيهم وقلة اختلاطهم بغيرهم وليس معنى هذا أنه لم يك من أحدهم خروج على المصطلح العام بل معناه أن ذلك الخروج كان قليلا وعن غير الصميم وهو ماسمى بالشاذ والمسموع بخلاف الخروج فى العصور الاسلامية بعد فقد كثر وعارض الاسس ولذلك لم يحجم واضعو أصول العربية عن تسميته لحنا وخطأ مفرقين فى التسميه بين النوعين

ثانيا — خلوها من الدخيل وسببه سبب عدم اللحن غير أن اختلاطهم بمن جاورهم من الامم بعض الاختلاط بحكم الجوار جعلهم يأخذون من لغاتها وبخاصة الفارسية كلمات أدخلوها كلامهم ولكنهم أحدثوا فيها صقلا فربها من لغتهم وأعطاها جرسها فأصبحت كأن لم تك غريبة عنها ولذلك لم يطلق عليها اسم المعرب كما اطلق على ما اقتبس بعد

ثالثا — ايجازها فقد كانوا يرون البلاغة فى الايجاز . وإذ كانوا فرسانها الاوائل فقد قدروا على تحقيق مارأوا دون اخلال بالمعانى ولا بما قصدوا

اليه من أغراض ولهذا كانوا يفضلون من الجمل القصير واذا خرجوا عنه فالى المتوسط لا الطويل

رابعا — ارسالها على ماتقتضى البلاغة الفطرية دون تكلف فيها ولامراعاة لما أتت به الصناعات اللفظية بعد فقلما يرى لهم تأنق فى انتقاء ألفاظ متناسبة الوزن متشابهة النغم أو صوغ عبارات ذات جناس أو طباق أو غيرهما من محسنات البديع الا ما أتى عفوا غير مقصود

خامسا — اشتمالها على كثير من الالفاظ المترادفة على القول بأن هناك ترادفا حقيقيا جاء من اختلاط القبائل وتعرف بعضها لغات بعض أما على أنه لاترادف فى الواقع وأن لكل مرادف خصوصية كانت تعرفها العرب له على مرادفه وأنا نسينا ذلك نحن فلا ترادف الا من حيث الظاهر فقط وهى على كلتا الحالتين لاتخرج عن أن تسمى خاصة ومميزا

ب — فى المعاني

كانت المعاني فى الجاهلية قاصرة على الحقيقة واذا جاوزتها الى غيرها فالى المجاز ذى العلاقة البارزة التى لم يلبث معها طويلا حتى صار حقيقة فى كثير من الالفاظ . أو إلى الكناية قليلة الوسائط مع قرب المنال أو كثيرتها مع شدة اللزوم اللهم الا ماكان رمزا مقصودا وكثيرا ماكانوا يعمدون فى الكناية الى التعريض اتقاء التصريح بما يستهجن أو غيره لسبب ما فلا يقع فى ذلك فحش ولا خفاء . وكانوا اذا تخيلوا لايخرجون فى ذلك عن الخيال المنتزع الصورة من الحس الظاهر والواقع فى دائرة الامكان العادى أو العقلي الا ماقصدوا فيه الى هذا الخروج كخيالهم فى موارد الامثال الفرضية وبعض الاوابد

جـ — فى الغرض العام

أما الغرض العام الذى يرمي اليه فكان يدور حول ماتقتضيه البداوة

والفطرة الخاليتان من تكلف أهل الحضر وتأنقهم ويكاد ذلك ينحصر فى وصف المعيشة البدوية ومرافقها من سهل وترحال واستدار غيث وانتجاع كلأ واستنبات نبت ونتج حيوان وفى إثارة المنازعات والمشاحنات وما تجر اليه من حض على ادراك ثأر وقول فى نعى ميت وتفاخر بمال وولد وتباه بشجاعة وانتصار وتشرف بكرم محتد وحوز فضيلة ثم فى وصف ما يشاهد بجزيرتهم والاخبار عما يقع فيها بما يناسب بيئتهم ويتفق وطبعهم

ثانيا — المميزات الخاصة

ا — فى النثر

يمتاز النثر الجاهلى فوق ما تقدم فى المميزات العامة بما يأتي

أولا مجئ السجع فيما أثر منه أكثر من الازدواج والازدواج أكثر من الترسل وانما قلنا فيما أثر لأن طبيعة صدور الكلام تأبى الا أن يكون الواقع العكس وانما علق المسجوع بالاذهان أكثر من أخويه كما تقدم لسهولة حفظه ولأنه كان المقصود فى مهام الامور على أنه قد كانت هناك طائفة لا تتكلم الا المسجوع هى طائفة الكهنة والعرافين لما للسجع من جمال الوقع على الاسماع وشدة التأثير فى القلوب وهذا ما يريدون وقد انقرضت هذه الطائفة بالاسلام وكان أكثر الكلام ترسلا وواليه الازدواج ثم السجع فكانت الحال معاكسة لما أثر أو موافقة لما كان فى الحق هو الواقع

ثانيا — كثرة أمثاله بنوعيها ومجئ حكمه كثيرة وعلى مقتضى الفطرة أيضا فان الامثال تكاد تكون قاصرة على العهد الجاهلى وما جاء بعد لا يعدو حد القلة وأغلبه على صيغة أفعل . والحكم لا تكاد تحوى تعمقا فى فكرة

أو اغرافا فى فلسفة لما كانت عليه العرب من حال بداوة لا تعمق فيها لعلم ولا زخرف لحضارة وانما ساعدها على الاكثار من هذين النوعين رجحان عقولها وسلامة فطرها مع تملكها زمام الفصاحة واقتدارها على الايجاز

ثالثا — تفرده بالمنافرة على معناها الجاهلى فاعرفت فى الاسلام منافرات فرضت فيها الجعول وهرع من أجلها المتنافران الى الحكام وكذا بالمفاخرة فيما نهى عنه الدين بعد وهو أكثر ما كان فى هذا الباب فقد صار جل تفاخر المسلمين بالدين والتقوى وما يقدم من صالح الأعمال للافراد والجماعات الى غير ذلك مما يحض عليه الدين

رابعا — اختلافه فى الاغراض العامة لخطبه ووصاياه عما كان بعد فقد بقيت الخطب والوصايا فى عهود الاسلام الى وقت طويل ولكن التبديل الكبير للعرب فى الدين والسياسة والمعيشة والاجتماع باين كل المباينة فى هذه الاغراض فمات بعضها كشن الغارات والاخذ بالثأر وحلت الكتابة محل الخطابة فى بعض أخر كالسفارات وتحور بعض ثالث تحورا كبيرا فى بواعثه وما آخذه كالحض على القتال إذ صار للفتح والجهاد وكالامر بالمعروف والنهى عن المنكر إذ صارت ما آخذه من تعاليم الدين وكذا خطب الاملاك وقلما بقى غرض على حاله كالدعوة الى السلم

ب — فى الشعر

يمتاز الشعر الجاهلى بعد الذى سبق فى المميزات العامة بما يأتى

أولا — اشتمال كثير منه على بعض الالفاظ الغريبة بالنسبة الينا نحن لا إلى وسطهم فان ذلك جاء نتيجة لما أهمل بعد الجاهلية من أغراض كانت كثيرة القصد فيها كوصف الابل وحمر الوحش والقسى ونحوها مما كان من

صميم البادية وهجر فهجرت لذلك الالفاظ التى كانت تؤدى بها معانيه وأصبحت ذات غرابة علينا ولو بقيت تلك الاغراض مؤداة لكانت ألفاظها وما تستسهله الآن سواه

ثانيا — جزالة الالفاظ وضخامة التراكيب ذلك بأنهم كانوا على تمام علم ودراية بمفردات لغتهم والمواطن اللائقة باستعمالها ثم كانوا ذوى قدرة ولباقة على التصرف فى الاساليب بما يكسبها القوة والمتانة وبخاصة فى الاغراض المتطلبة لها كالحماسة والفخر والوعيد والانذار ونحوها أما غيرها مما يقتضى رقة كالنسيب مثلا فقد كانوا غالبا يتخيرون له من الالفاظ مافيه عذوبة ومن التراكيب ماهو ذو سلاسه

ثالثا — اتفاق بدء القصائد فى التشبيب الذى لا يعدو الوقوف على الدمن ومخاطبة الاطلال ووصف الظعون والتحرق على بعد المزار ونعت النوق التى ترحل للحاق بالاحباب ثم وصف هؤلاء الراحلين على خلاف بينهم فى اطالة بعض هذه الجزئيات أو تقصيرها واستيفائها كلها أو إسقاط بعضها

رابعا — عدم حسن التخلص من غرض الى غرض فى القصيدة الواحدة فقد كان يحدث الانتقال فجأة دون تمهيد أو بتمهيد ضئيل لا يعدو أن يكون لفظة أو اثنتين كدع ذا وعد عن ذا ونحوهما وبمثل هذه المفاجأة كان ينتهى القصيد

خامسا — اجادة وصف مظاهر البادية فى كل ناحية من نواحيها وتسجيل كثير من أوابد العرب عقائد وعادات. فالشعر الجاهلى وحده يكاد يكون المرجع فيما عرف من هذه الاشياء بخلاف الشعر الاسلامى لبعد رجاله عن البادية سكنا ولتغير أحوالهم العامة تغيرا كبيرا يجعلهم اذا عالجوا ذلك عالجوه عن تكلف منهم

وتقليد لاسلافهم لا يصدر عن شعور ولا ينتزع من وجود

سادسا — تصويره للاشياء على حقائقها من غير ما مبالغة بله الغلو والاغراق اللذين كثرا بعد وانما جعلهم كذلك أن كانوا على فطرة طبيعية لا تكلف فيها وعلى جانب من الحرية لا يحد من فكر ولا يقيد فى قول ويتضح هذا جليا فى الوصف كما يتضح فى سائر فنون الشعر . فالمتغزل لا ينعت محبوبته بالمستحيل من الصفات ولا يدعى لنفسه اذا نسب الموت فى هواها دون موت. والشجاع المتحمس لا يزعم أنه مزلزل الأرضين محرك الراسيات . والفخور لا يجاوز ما لنفسه وقبيله من محامد وتراث. والرائى لا يزعم بموت المرثي ظلام الوجود واختلال نواميس الحياة. وكذلك المدح والهجاء كان فيهما الاعتدال إلا إسراف فى الاول ولا إقذاع في الثاني إلا ما كان آخر العهد لدى بعض الشعراء ممن اتخذوهما وسيلة للتكسب رغبا ورهبا ومع هذا لم يصلا الى شيء مما بلغاه بعد فى سائر العهود

سابعا — شدة تأثيره فى ذلك العهد أكثر من غيره كما بيناه آنفا حقا كان أم باطلا لان شعور القوم إذ ذاك كان أغلب على عقلهم شأن ذوى الفطرة والسذاجة البعيدين عن تثقيف العلم وتقويم الحضاره

وبعد فان فيما سلف من نماذج وغير نماذج لمختارات النثر والشعر لآيات بينات على ماذكرنا من خصائص ومميزات فليرجع اليها فى ضرب المثل والاستشهاد وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب ؟